كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

زوروا موقعنا على الإنترنت: www.kitabfijarida.com

عدد 130 – الأربعاء 3 حزيران (يونيو) 2009

نجمة

رواية

كاتب ياسين

رسوم: دنيس مارتينيز



الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

اقرؤا «كتاب في جريدة» الأربعاء الأول من كل شهر على
www.kitabfijarida.com



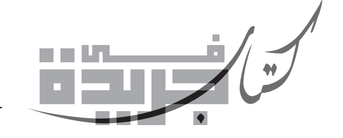
الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني لـ«كتاب في جريدة» .



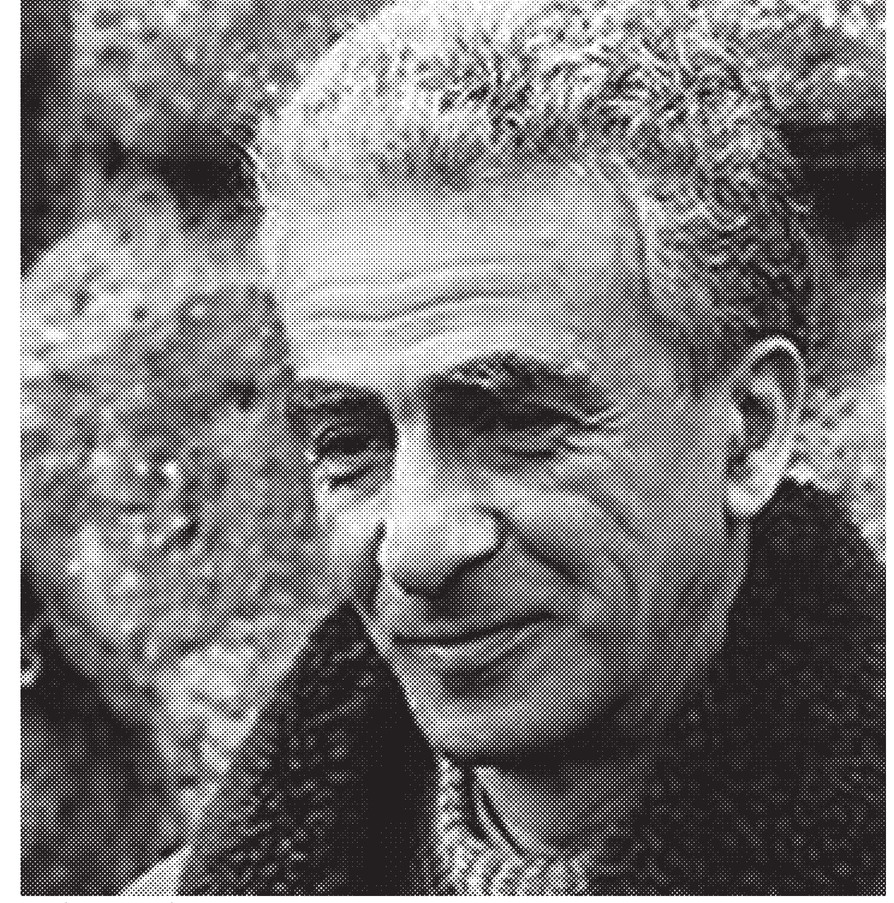
سعادة السيد كويشيرو ماتسورا Koïchiro Matsuura المدير العام لليونسكو
ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber



برعاية كل من مؤسسة MBI Al Jaber Foundation ومنظمة اليونسكو UNESCO وبمشاركة كبريات الصحف اليومية العربية ونخبةٍ رائدةٍ من الأدباء والمفكرين، يتواصل أكبر مشروع ثقافي مشترك «كتاب في جريدة» من أجل نشر المعرفة وتعميم القراءة وإعادة وشائج الإتصال بين عموم الناس ونخبة الفكر والإبداع في المجتمع العربي ليقدّم هديّته كلّ شهر بأكثر من مليوني نسخةٍ لكتابٍ من روائع الأدب والفكر قديمه وحديثه.



كاتب ياسين، عاشق الوطن المستحيل



كاتب ياسين روائي جزائري مشهور عالميا. كل كتاباته باللغة الفرنسية وهو صاحب أكبر رواية للأدب الجزائري باللغة الفرنسية و من أشهرها في العالم «نجمة».

ولد بمدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري في 6 آب/أغسطس 1929. بعد فترة قصيرة تردد أثناءها على المدرسة القرآنية ثم التحق بالمدرسة الفرنسية و زاول تعلمه حتى الثامن من شهر ايار 1948. شارك في مظاهرات 8 مايو 1945 فسجن وعمره لا يتجاوز 16 سنة. بعدها بعام فقط نشر مجموعته الشعرية الأولى «مناجاة». دخل عالم الصحافة عام 1948 فنشر بجريدة الجزائر الجمهورية Alger Republican التي أسسها رفيقه الكاتب الفرنسي الشهير Albert Camus ألبير كامو. إنضم إلى الحزب الشيوعي الجزائري وقام برحلة إلى الاتحاد السوفياتي ثم إلى فرنسا عام 1951.

تقلد منصب مدير المسرح بمدينة «سيدي بلعبا» في غرب الجزائر وقبل وفاته واجهَ من خلال حوادث «سطيف» في ذلك التاريخ واقع الاستعمار و كان لذلك أبعد الأثر في كتاباته، ومنها «نجمة» 1956 و «دائرة القصاص» (مجموعة مسرحيّات 1959) و «المضلع الكوكبي» 1966 و «ذو النعل المطاطي» 1970 و كلها نُشرت في دار لوسوي Le Seuil الفرنسيّة.

توفي في 28 أكتوبر 1989 بمدينة غرونوبل الفرنسية ودُفن في الجزائر.

من يقرأ نجمة كاتب ياسين، يقرأ تاريخا مرتبكا، مجروحا في عمقه، ممزقا في أجزائه الحميمية. يتحول النص فجأة إلى وسيلة استثنائية لجمع التفاصيل والمزق والأشلاء. يجتهد لابتداع هوية جامعة، هي في طور التكوين. هوية يريدها كاتب ياسين قادرة على تحملَ مَسؤولية تعدديتها والاعتراف بها، بدل اختزالها وتحويلها إلى هوية قاتلة. «نجمة» رواية تقول ذلك كله، من خلال وسائطها الأدبية، واضعة حدا بينها وبين كل السبل السهلة للخطاب السياسي الجاهز الذي يستند إلى وسائل اختزالية ميالة نحو التنضيد والجاهزية، على الرغم من تعقدها الموضوعي. هذا بالضبط ما جعل النص يتجدد من حيث القراءة بديمومة واستمرارية ليصبح مادة يرتبط بها كل جيل بأسئلته الخاصة والحيوية. لم يقطع كاتب ياسين، مع التقاليد الكتابية التي سار عليها أغلب مجايليه مثل مولود فرعون ومحمد ديب ومولود معمري وحتى مع إيمانويل روبليس، وروبير راندو والبير كامي، الذين شكلوا جزءا مهما من ذاكرته، فحسب، ولكن مع الأدب الفرنسي نفسه، الذي اخترقه بتجربة خارجية تأثر بها عميقا، وهي تجربة فوكنر، الذي ساعده على قلب كل المعايير الروائية، وجعل من النص المستقر، نصا قابلا للاختراق وتجميع أجزائه مثلما نجمع أجزاء وطن ممزق. قد تكون «نجمة» التي لملمها كاتب ياسين من شعره هي تعبيره الكبير عن هذه الاستحالة. فقبل أن تكون رواية، كانت عبارة عن قصيدة: «نجمة والسكين» أو قصائد أخرى موزعة على شخصيات مثل مصطفى ولخضر، قبل أن تنتهي إلى نص متكامل، ملحمي وواسع، كان على الناشر الفرنسي أن يخلصه من جزء كبير من تفاصيله الحكائية والشعرية التي أدمجها ياسين في رواية كان يريدها أن تقول كل شيء عن حميميات وطن يرفض أن يرى الأعداء وجوده التاريخي، و يرفض هو أن يرى نفسه في المرآة.

من هنا تصبح دلالة هذا النص في غاية التعقيد والالتباس. «نجمة» هي الحب الطفولي المستحيل، وهي الجزائر في معركتها من أجل الوجود والاستمرار، وهي أيضا البحث المستميت عن المعنى الغائب والضائع، وهي الحاضر والماضي والمستقبل مجتمعين في عدم انتظامهم وتعقدهم، وهي المرأة الوطن التي تلتصق بالجلد حتى عندما نريد أن نتخلص منها. وربما كانت أكثر من ذلك كله، الإصرار على الحياة في صلب الحرب القاسية، ووسط المستحيلات الكبيرة.

فقد صدرت نجمة (1956) ونيران الحرب التحريرية في عز اشتعالها، ومع ذلك لم تفقد بُعدَها الإنساني. بدل الفرق في الأحقاد والنزعات الاختزالية السهلة، حولت قضية التحرر إلى حالة وجودية وليس فقط قضية شعب يريد الاستقلال. كتب ياسين لألبير كامي يوما يقول: «أخي في الوطن. ها نحن الآن منفيان من المملكة نفسها، نقف وجها لوجه كأخوين عدوين، ملفلفين داخل غطاء الكبرياء والتملك، بعدما سلّمنا في الإرث لكي نتفادى تقسيمه، وهاهو هذا الإرث الجميل يتحول إلى مكان مسكون تفتال فيه ظلال العائلة والقبيلة بحسب الحافة اللغوية التي نقف عليها، على الرغم من أن اللغة التي تجمعنا واحدة».

كان عمر كاتب ياسين وقتها لا يتجاوز الثماني والعشرين سنة.

فلا يختلف اثنان في أن «نجمة» رواية حداثية بامتياز لأنها تترصد اللامرئي بقوة وإبداعية خلاقة مما يجعلها صعبة الفهم والتناول. بنيتها المجزأة تعطيها تفردها الخاص. فياسين يريد من خلال ذلك، أن يقدم درسا ليس سياسيا، ولكن فنيا، مُظهراً صورة عميقة، متوغلة في التاريخ، لا يريد الاستعماري المنغلق رؤيتها ولا الوطني المحصور في دائرة ضيقة فهمها، ولا حتى المتنور نسبيا كألبير كامي استيعابها. فقد كانت رؤيته ضيقة أيضا، الأمر الذي دفع به إلى القول في البداية أنه يفضل الفوضى على اللاعدالة Préférer le désordre à l'injustice ، قبل أن يندرج ضمن المنظومة الاستعمارية السهلة عندما اختار أمَّهُ بدل العدالة choisir ma mère que la justice

وحده الأدب العميق كان قادرا على الخروج من المتداول والسهل والمستهلك الذي يفبرك الحلول على حواف ساحات المعارك، أو في البرلمانات المدسوسة، متناسيا أن التاريخ أعقد من ذلك كله. كاتب ياسين لا يُجَمِّل التاريخ، حتى ولو كان مجروحا في الصميم، ولكن يعرضه في تمزقه وتعقده الكبيرين. جزائر متعددة، معقدة متناقضة، عنيفة، قديمة، وثنية، يهودية، مسيحية، رومانية، إسلامية، مسالمة ومتوحشة، مثلما هي لا مثلما تريدها الاختزالات السياسية الاستعمارية أو الوطنية. جزائر كلية وليست جزائر منتقاة.

صحيح أن «نجمة» كُتبت بصفاء لغوي عال وأنيق، ولكنها أيضا لغة لقيطة أو خُلاسية، تجتمع فيها الفرنسية العالية والعربية الشعبية، اللغة التي تقول السمو والعلو والانحطاط والشتيمة. مثلما في ذلك مثل بقية الموضوعات التي تؤثث النص. كلها مخترقة بما يناقضها ويجعلها مثار أسئلة معقدة وكثيرة.

على الرغم من أن اسم الرواية «نجمة»، مما يفترضها بطلةً من أول جملة إلى نهاية النص، إلا أن ذلك لم يحدث. ليست «نجمة» هي البطلة التقليدية كما في النصوص الروائية الكلاسيكية، كـ آنا كارنينا أو مدام بوفاري وغيرهما، ولكنها مساحة من النور المتمادي الذي يظلل الجميع ويظهر طفولتهم وقسوتهم ورقتهم الخفية. مساحة متناقضة يتداخل فيها الشرف والقبلية واللقاطة، والكذب والصدق القاتل. «نجمة» هي ابنة القبيلة من أب مجهول، ولكنها تنزلق من أي تعريف لتتماهى في كل شيء. ولدت من علاقة غير شرعية، تنتصر بجمالها المخيف وحسها العميق على كل شيء. تزوج بالقوة من رجل ملتبس، ربما كان أخاها. ابنة امرأة غريبة يهودية من مرسيليا، عشقها سي مختار ومنافسه الأبدي. الشخصيات الأربعة: لخضر، مراد، مصطفى ورشيد، هي ظلال لها، كل واحد يملك جزءا من تاريخها ولكنه لا يملكها أبدا. المرأة القدر La femme fatale التي لا ضامن لمصير من يقربها. الأبطال الاربعة ينتهون نهايات قاسية: السجن، العمل الشاق، الضياع في دوامة الكحول والحشيش، المنفى.

جزائر كاتب ياسين ليست جزائر الجنة المرجوة. جزائر «نجمة». هي التراجيدية عينُها.

واسيني الأعرج
جامعة السوربون، باريس
جامعة الجزائر المركزية

دنيس مارتينيز Denis Martinez

– ولد في مرس الحجاج بولاية وهران الجزائرية وهو يعيش في مدينة مرسيليا Marseille بفرنسا منذ عام 1994.

– درَسَ في المدرسة العليا للفنون الجميلة بالجزائر 1975 وباريس 1962 وعمل محاضراً في المدرسة العليا للفنون بعد تخرّجه حتى عام 1993.

– 1967 أسس جماعة عوشم Aouchem للتصوير.

– 1995 – 2006 عمل محاضراً في المدرسة العليا للفنون في مدينة أكس أون بروفانس Aix-en-Provence في فرنسا.

– أقام العديد من المعارض الفردية والمشتركة في الصالات والمتاحف الفرنسية والأوروبية والجزائر وتونس ومنظمة اليونسكو في باريس أهمها:

1998 – معرض التعبير عن المكان في متحف الفنون والتقاليد الشعبية في الجزائر – العاصمة.

1990 – سبعة جدران / آيت هشام في منطقة القبايل في الجزائر.

2000 – معرض في متحف النسيج في مدينة أكس أون بروفانس Aix-en-Provence.

– يقوم منذ عام 2004 بأنشطة فنيّة ولقاءات في القرى الجبلية في مناطق القبائل الجزائريّة. كما نشر بعض الكراريس الشعرية والأنطولوجيات.

– صدر كتاب «مارتينيز – رسام جزائري» بقلم نور الدين سعدي وقام المخرج جان بيير ليبدو Jean Pierre Lledo بانتاج فيلم قصير وثائقي عن حياته وأعماله.

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرِّر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَرّ
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

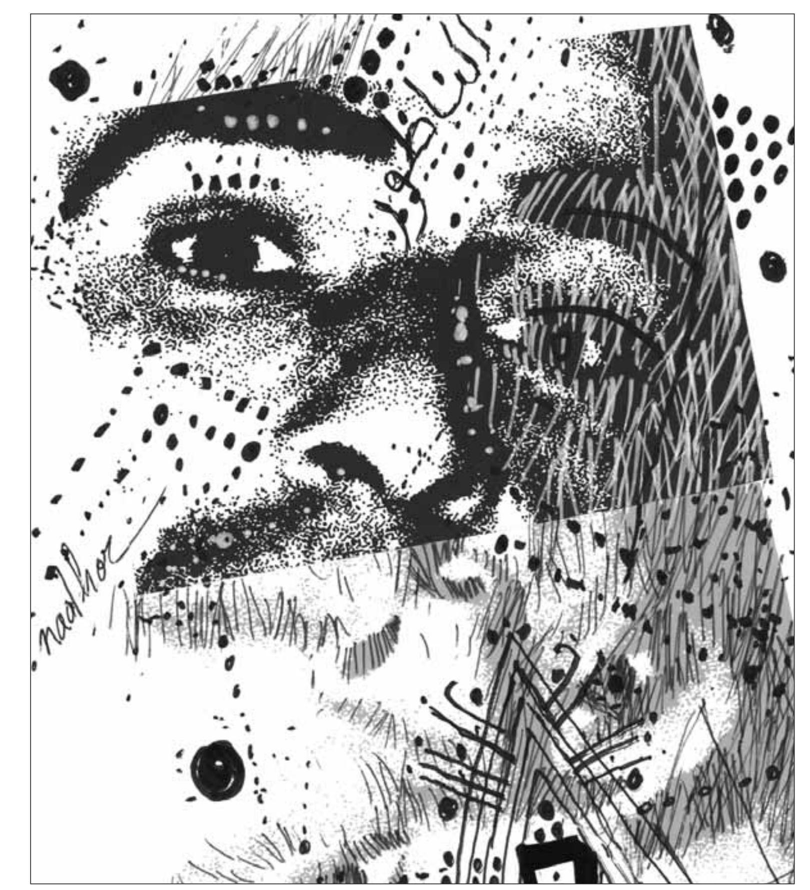
تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر



كتاب في جريدة

سنتر دلفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

ينشر «كتاب في جريدة» في هذا العدد 130 الأجزاء من 3 إلى 7 من رواية «نجمة» الصادرة عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» – عمّان / بيروت 2007.

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول.



نـجمة

ترجمة: ملكة أبيض العيسى

الفصل الثالث

1

كثيرة هي الأشياء التي أجهلها، كثير من الأشياء، لم يقلها لي رشيد. كان قد وصل إلى مدينتنا برفقة شيخ يدعى سي مختار، كان يعامله بألفة متناهية. لم يكن سي مختار ليرفض أن يحادث أياً كان، لو لم يكن رشيد (هذا هو الإسم الوحيد الذي يُعرف به) بتصرفاته الفظة، وصرخاته العالية، يفرض عليه طوال النهار وجوده الجائر. كان الرجلان، رشيد بنظارتيه السوداوين، وسي مختار بطربوشه المصري الذي يغطي رأسه، الطربوش المفرط في الطول بالنسبة لقامته، الصارخ اللون بالنسبة إلى سنه، كان الرجلان موضوعاً لا ينفد لإثارة الفضول وحب الاطّلاع. كانا يحوزان على رضا الآخرين بطيبتهما التي لا تتدخل في شؤون الآخرين، بمرحهما؛ وأخيراً بذلك السر الذي كان يبدو أن أصغرهما يرعاه، بنظاراته السوداء، وزيّه نصف المدني، ونصف العسكري، وذلك النفوذ الذي يمارسه على صديقه الذي يكبره مرتين، أو أكثر..

واستمر ذلك عاماً كاملاً، قبل أن يعرف الناس أنهما قادمان من قسنطينة، وبدأ أهل عنابة يعرفونهما شيئاً فشيئاً. كانا نادراً ما يفترقان، فلا يرى الواحد منهما بدون الآخر. ولم يستطع أحد من الذين خالطوهما أن يعرف شيئاً دقيقاً عن قصة هذين الشريكين اللذين يكبر أحدهما الآخر مرتين أو أكثر... ومع ذلك فانهما لا يكادان يفترقان. ثم لوحظ اختفاؤهما دون أن يلقي أحد إلى ذلك كبير اهتمام. لأنهما اعتادا أن يتغيبا مرات عديدة خلال تلك السنة، ولكنهما كانا يعودان للظهور، كما لو أن شيئاً في عنابة يجذبهما، ثم يبعدهما على التوالي. كنت ما أزال طالباً في الثانوية عندما قدم سي مختار ورشيد معاً إلى عنابة لأول مرة. لم أكن أستطيع الخروج كثيراً لأكون على علم بغدواتهما، وروحاتهما، ومع ذلك فلم يكن أيسر من أن يصادفهما المرء؛ أو يسمع عن وصولهما. لم تكن أية مناسبة تفوتهما. كانا يصادَفان في كل مكان يلتقي فيه أهل المدينة: في الملعب، على رصيف الميناء، في الشوارع، على الشاطئ، في المقاهي، ولم يكونا في الحقيقة ليثيرا فضول أحد من الناس، لولا هذا التباين الفاضح بينهما في العمر. كان سي مختار، بشعره الأبيض، وطربوشه الأحمر، وسترته الحريرية، لا يبدو عمره أقل من ستين عاماً، رغم أنه كان ما يزال يحتفظ بطراوة الشباب، ويمشي كثيراً، ويتحدث ببراعة، بعكس صاحبه رشيد الذي كان يلتزم الصمت المتكبر عندما لا يخطر له أن يقهقه، أو يصرخ، رشيد بأعوامه العشرين، أو الثلاثين، وهذه السترة الغريبة، التي تبدو وكأنها لا تخصه. وقد تعوّد أن يحملها أغلب الأحيان على ذراعه، وهذا القميص الأميركاني، ذي الصدر المنشى، إلى بنطال من الكتان الخاكي الذي يمكن أن يكون قد أبتاعه من أحد مخازن الجيش، أو من أحد الخياطين في الهواء الطلق الذين تصادفهم في كل مدن الجزائر، يضاف إلى ذلك عدد من التفاصيل الغريبة لا تغيب عن أحد، كالنظارة السوداء، والصرخات العالية، والمظاهر العسكرية لرشيد، والطربوش المصري المفرط في الطول، وحتى البنطال الانجليزي القصير الذي كان سي مختار يرتديه في بعض الأحيان، فيصل إلى باطن ساقيه الرماديتين، ويبدو بذلك مثيراً للسخرية، ولكنه قلما يأبه لأفواج الفضوليين الذين يتبعونه على بعد مائة خطوة؛ ولم يكن ليشعر بالضيق أو الحرج. فتراه يسير منطوياً على نفسه في تواضع لا ينقصه الزهو والاعتداد بالنفس.

2

لم يكن النازحون إلى مدينتنا عنّابة بالعدد القليل؛ لقد جعلتنا الحربان العالميّتان، واتساع المرفأ على مر الأيام، نمتزج نحن، سكان المدينة الأصليين، بأناس من مختلف الطبقات والأحوال؛ ولا سيما بالفلاحين الذين هجروا الأرض، وقاطني الجبال، والبدو الرحّل.

وباختصار، فإن موجة العاطلين عن العمل تضخمت لدى تسريح الجنود من ثكناتهم، هؤلاء الجنود الذين عرفهم نفس المرفأ في الذهاب والإياب. ففي المرفأ وحده كان كل فرد يستطيع أن يجد عملاً على الفور، أن تهبط عليه فجأة صفقةٌ رائعة، لا تتحقق عادةً إلا على رصيف الميناء، أو على سطح باخرة أجنبية؛ كما يحدث أن يمكث هذا الفرد طيلة حياته دون أن يقع على عمل. وكم من بائس قضى نحبه في وَضَح النهار قبل أن تسنح له أية فرصة في الحياة. وأصبحت المدينة خانقة، تحدث الدُّوَار، كصالة لعب، في سرائها وضرائها. ولم يعد التمييز ممكناً بين السكانّ القدامى والمغامرين، اللهم إلا من لغتهم، ولهَجَاتهم، وشيء من التسامح بالنسبة للغرباء الذين يُثرون، ويعمرون، وينعشون كل مدينة ساحلية تتعرض لمد الموجات البشرية وجزرها، تلك الموجات التي تكتنفها طوعاً أو كرهاً. أما الصديقان سي مختار، ورشيد، فقد أصبحا معروفين في أوساط مختلفة من المدينة، وراحا يقضيان الأماسي المرحة دونما كلل ولا ملل، ودون أن ينبسا بكلمة تنم عن أصلهما وأغراضهما... ولهذا لم يكونا ليثيرا كبير اهتمام عند الناس؛ فإذا ما اتفق أن ظهرا في وضع يخالف المألوف، فلم يكن ذلك يستدعي أكثر من السخرية والضحك. ولكنهما كانا بالرغم من ذلك يوحيان بالاحترام، لا لشيء، إلا لإصرارهما على ألا يتدخلا في شؤون أحد. لم يكونا يرتادان المقاهي فحسب، بل كثيراً ما كانا يصادَفان في الاجتماعات، وأحياناً في المساجد. أما بطالتهما فلم تكن تبدو شيئاً بعيداً عن المألوف، في زمن كان المسرَّحون فيه من الخدمة العسكرية أنفسهم دون عمل.

شيء واحد فقط كان يثير الفضول هو ذلك التباين الهائل بينهما في السن.



3

في إحدى خمارات المرفأ، التقيت بالرجلين لأول مرة، بعد نزولي من المركب بقليل. كان سي مختار يتحدث إلى ضابط صف انكليزي؛ أما رشيد فكان يصغي اليهما واللفافة بين شفتيه. كان الموضوع يدور حول الحرب والحرية. وانتهى ترددنا على أماكن بيع السمك المقلي إلى اجتماعنا، فإذا أنا بجانب رشيد.

4

ونُمي إليّ بعد ذلك بشهر واحد أن رشيداً وسي مختار حضرا الاحتفال بزواج نجمة، نجمة الابنة الوحيدة لعمتي لالا فاطمة التي انقطعت عن السكن عندها منذ أن غادرت المدرسة، وقد استغربت ألا يتحدث إليّ رشيد بشيء عن العرس، رغم الصداقة التي أخذت تنشأ بيننا من بعيد. لم يكن يتكلم معي بادئ ذي بدء، ولكنه لم يكن ليخفي مودته لي. كان يبادرني دائماً بالتحية في لهجة آمرة، ويستوقفني كلما صادفني في طريقه. وبديهي أن سي مختار كان أغلب الأحيان بجانبه، وإن أخذا يظهران أحياناً وحيدين، هادئين، وقد اعتزل الواحد الآخر. وربما تلاقيا في الطريق، فنظر كل منهما إلى صاحبه شزراً، ثم لا يلبثان أن يشاهدا من جديد معاً، كسابق عهدهما، بسرهما المصطنع، بشجارهما الصُّوري، بحوارهما الذي يرتفع فيه صوتهما كأصوات الصم، بتأملاتهم المشتركة، وأخيراً بالأفواج العديدة التي كانت تتبعهما على بعد مائة خطوة...

لم يتفق قط أن تكلما أمامي بشيء عن زواج نجمة، الذي لم يتح لي حضوره.

5

ثم غابا. ولم يدهش أحد لذلك. فالصديقان اعتادا أن يختفيا من وقت لآخر؛ ولكن شهوراً عدة انقضت على غيابهما هذه المرة. وفي خلال تلك الفترة تعددت زياراتي لعمتي. وفي الفترة ذاتها تعرفت إلى طالب شاب فُصل من المدرسة يدعى مصطفى؛ وعن طريقه علمتُ بعودة رشيد. كان في هذه المرة وحيداً. لم يعد سي مختار معه.

6

ومن مصطفى علمتُ أيضاً أن رشيداً غارقٌ في الشقاء؛ مصطفى الذي ينطوي أيضاً على أسطورته الخاصة، والذي لم يكن في المدينة منذ أمد بعيد ليهتم بأمر رشيد. لقد شاهده ذات ليلة يزرع الرصيف، وحاول التحدث إليه، ثم ابتعد، لأن الرجل، ذا النظارة السوداء أجاب على تحيته باقتضاب. من وصف مصطفى عرفت الشخص المعني، عرفت رشيداً، وأخذت أبحث عنه على الفور. وأخيراً انتهى مصطفى ورشيد إلى الإقامة معي في نفس الغرفة التي استأجرتها لي لالا فاطمة، على مقربة من دارها، بعد الفضيحة التي جعلتني أترك المدرسة.

7

وبعد عدة أيام، استطعت على وجه التقريب أن أربط جوانب القصة التي لم يشأ رشيد أن يكملها في يوم من الأيام. كان يعرض للموضوع بصورة خاطفة، ولكن عرضه الخاطف هذا كان يتكرر المرة تلو المرة، ثم ما يلبث أن يصمت، ويعود إلى الحديث كلما رآني أصغي باهتمام أشد، كما لو أنه كان يرغب في الإفضاء بسره، ويريد أن يتأكد في الوقت نفسه أني غير معنيٍّ كثيراً بهذا السر.

8

إنها امرأة، تلك التي كان رشيد يلاحقها في عنابة. كان يتظاهر بأنه يجهل اسمها ولكنه لم يكن يستطيع مع ذلك أن يمتنع عن وصفها، بصورة تجعل معرفتها على وجه الدقة أمراً يكاد يكون مستحيلاً. كان يتكلم بصلابة وقلق يعيدان إليّ همومي وقلقي... وبعد محاولات عديدة، شعرت أنه يجرب إلهائي، وتضليلي في طريق مسدود. أحسست ذلك من التناقضات التي كان يقع فيها، ومن دلائل أخرى.

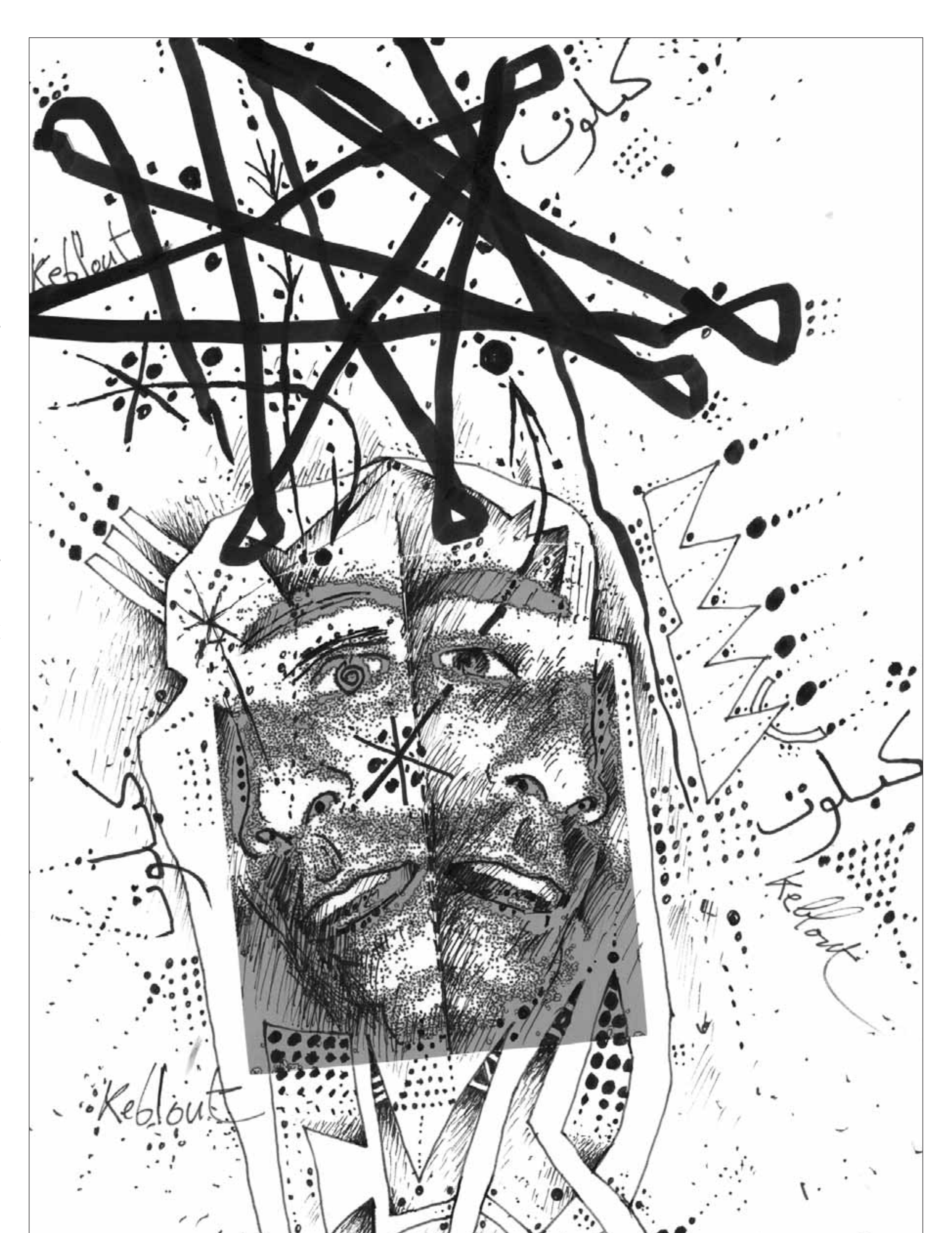
9

لم يكن ثمة مجال للشك بأن رشيداً كان يعاني قلقاً عنيفاً، كان يدخن بكثرة، ينام ليلة، ويأرق أخرى، فيمكث ساهراً، أو متجولاً وحده، أو برفقتي؛ فقد كنت أتعلق به تعلقي بمصطفى. ولكني لم أوفق حتى الساعة إلى جعلهما صديقين متحابين. أما رشيد فإذا ما حدث أن تكلم معي فإن ذلك يكون رغماً عنه، (كأنْ يهذي بكلمات محمومة، أو بصرخات يتبعها صمت كئيب).

لقد بدأت أشعر بأن علاقاتنا تزداد توتراً كلما ازدادت متانة. لقد أخذ يصطنع الهدوء، ويزداد تحولاً يوماً بعد يوم، حتى غدا مغلقاً على ذاته تماماً. ثم انتابته نوبة ملاريا ألزمته غرفتي أكثر من أسبوع، نوبات عنيفة من الحمى كانت تجعل أسنانه تصطك، وهو جال على السرير، فإذا هو يعقد منديلاً حول رأسه، ويغرق في سُبات سطحي غريب، تقطعه رعدات، وهذيان شديد، وانتفاضات كانت توقظني طوال الليل، وتتركني بدوري محموماً فاقد الصبر.

كنت أجاهد ألا أنبه مصطفى اللابد بجانب الجدار، في رقدة لا يعكرها شيء، فإذا ما تنفس الفجر غادر الغرفة كما لو كان يخشى العدوى، أو يتوقع أن يفضي رشيد إليّ ببعض الأشياء لدى يقظته. وغمغم رشيد:

– أتراك تفهم؟ إن رجالاً كأبيك وأبي رجالاً يطفح دمهم، ويهدد بأن يجرفنا في وجودهم الذي انطوى كمراكب مقوضة الصواري والأشرعة، لا تقوى إلا على العَوْم فوق مواضع الغَرَق، دون أن تستطيع الغرق بركابها. تلك هي أرواح الأجداد التي تملأ كياننا، مستعيضة عن مأساتها الخالدة بشبابنا المتطلع، بصبرنا، صبر الأيتام المقيدين إلى ظلهم الذي يشحب شيئاً فشيئاً. ولكنْ ليس من قوة تستطيع أن تلتهم هذا الظل، أو تقتلعه. إنه ظل الآباء القضاة، المرشدين الذين نقتفي آثارهم، ونتتبع خطاهم رغم طريقنا الخاص، دون أن نعرف أبداً أين يوجدون، دون أن نعرف متى ينقلون النور بغتةً من مكان إلى مكان، ويمسكون بنا من كشحنا، ويُبعَثون أحياء دون أن يخرجوا من الأرض، ويرتدوا هياكلهم المنسية... يُبْعَثون بمجرد أن ينفخوا في الرماد الحار، فيحركوا عواصف الرمال التي تفرض علينا السير والظمأ، حتى المجزرة، حيث ترقد هزيمتهم القديمة المثقلة بالمجد، هزيمتهم التي يجب أن نأخذها على عاتقنا، نحن الذين خلقنا اللامبالاة، والطيش، وبكلمة موجزة... للحياة... إنهم آباؤنا حقاً، إنهم نهر الوادي الكبير الذي يجف، لتتغذى أضعف الجداول، حتى المصب، حتى البحر الذي لا يتعرف فيه أي نبع على هديره، حتى





الرعب، والفراغ، – حتى المحيط –. ومن منا لم ير نسبه مختلطاً كمجرى ماء مليء بالرمال؟ من منا لم يُصم أدنيه عن خبَب الأجداد تحت الأرض؟ من منا لم يركضْ، ويمرحْ، فوق قبر والده؟... إن قاطع الطريق الكهل!... إن سي مختار، الأب المزيف، هو نفسه الذي قادني إلى هذه المدينة وأضاعني، وتخلى عني. أتعرف كم من الأبناء، وكم من الأرامل، ترك وراءه، دون أن يلقي على نفسه لوماً لذلك؟ لقد كان ينافس أبي ومن يدري أيهما أعطى الحياة لنجمة؟... يا للشقي الأشمط! لقد أخبرني بذلك من قبل... من قبل مجيئنا إلى هذه المدينة بأمد بعيد، حيث كان يلاحقني دون أن يتظاهر بذلك، عالماً بأني كنت أبحث عن تلك التي يظنها ابنته، عن نجمة، التي قدمها لي هو نفسه، ولكنه ألقى إليّ قبل ذلك بنتف من الحديث، كان دائماً حديثاً متقطعاً... كما لا يجيد ذلك أحد مثله، كان يهمس:

«... إني أتساءل، ماذا يمكن أن يكون قد نجم عن تلك الليالي الغابرة، ليالي السكر، والزنى، ليالي الاغتصاب، والعنف، التي يلتحم فيها الجسد بالجسد، من مدينة إلى أخرى، في الدهاليز، وعلى الأسطحة، في صالات السمسارات...».

أما مجموعة النساء، النساء اللواتي أغواهن، ثم تخلى عنهن، فإنه على يقين بأنه لم ينس أية واحدة منهن. إنه لا يتكتم إلا فيما يخص نساء عائلتنا، فإن سي مختار ينحدر مثلي من القبلوت القديم. لقد كشف لي عن ذلك فيما بعد، بينما كنا نمخر معاً عباب البحر الأحمر، بعد أن تخلى عن مرافقة الحجاج إلى مكة... كان ذلك قبل إقامتنا الأخيرة في عنابة، قبل ذلك بزمن بعيد... وكان الشقي الأشمط يُفضي إليّ بالمزيد كل مرة، ولكني لم أكن أفهم مطلقاً هذا الاعتراف الذي يشبه التهريج، رغم انه كان قد أوحى إليّ بما هو أساسي، كان ذلك كأحاديث مريض بالكذب، كشفت ألاعيبه، وأرغم على أن يبصق الحقيقة عارية. بإعطاء أكاذيبه صورة محسوسة، غير متوقعة، كان يقول:

«... وإن ما يخفى عليّ إدراكه هو تلك الذرية، أولاد السفاح، الذين سينتقمون لكل العشيقات اللواتي جررتهن إلى الخطيئة، لكل النساء المتزوجات اللواتي كنت بالنسبة لهن الزوج الثاني، الزوج الذي يشوش الدماء، دماء القربى، في فترة وجيزة، ويفتح مجالاً أكبر للتنافس بين السلالتين؟ سلالة التقاليد، تقاليد الشرف واليقين؟ وسلالة الشجرة الجرداء التي كان ميئوساً من قدرتها على الانتشار، ولكنها باقية على قيد الحياة، في كل مكان بالرغم من منشئها الغامض...»

هذا الشقي، هذا الزوج الثاني، لم يكن بالمتعدد الزوجات، ولا هو بـ«دون جوان»... ولكنه على العكس، ضحية تعدد الأزواج بصورة غير محددة؛ لم يكن شديد الحرص على إزاحة خصومه الشرعيين، ولا على زوجاتهم المنجبات. كل ما كان يطمع فيه هو إغواء أبنائهم. كان كالشجرة المطاردة التي يحول ارتفاعها دون اجتذاب الطفيليات التي قد تنتشلها من صقيع الأعالي المميت. لقد فات الوقت الذي يتعرف به إلى أولاده؛ فات الوقت ليرى زغب طفولة خاصة به تتسلق نحوه، طفولة أعاد تكوينها بيده وحده، وذلك ما اضطره إلى أن ينحني نهائياً، مائلاً بجذعه، نابشاً جذوره الميتة، بحثاً عن نبات طفيلي غريب عنه حتى ذلك الحين... كان على حافة قبره، وقد تعرَّى من ثروة الدم القديمة، كطاغية ألقى بكل شيء بعيداً عنه، دون أن يدور في خلده أن بذلك لا يترك حوله إلا الفراغ، مقرباً ساعة انهياره المرتقبة؛ كان يفتش عبثاً عن شهود في محكمة الآباء والأبناء الذين خدعهم، أو تنكّر لهم، فضلاً عن العشيقات اللواتي لم يعدن يرغبن أن يلمحن ظله. لم يبق أمامه حتى ولا عابر سبيل ليعلن ساعة الانهيار:

«إني ابن هذه الجثة، إني برعم من هذا الغصن النّخر!»

أما سي مختار فقد أخذ ينحدر إلى أحطّ أنواع السخرية؛ فالزوجات اللواتي غرَّرَ بهن تركْنهُ في ظلمة الشك. لقد قبلن منه البذار، ولكنهنَّ أعدمن، أو أخفين الجَنى، ولم يبق للشقي إلا الاعتقاد المؤلم بأن ثمرة خياناته ستبقى دائماً سراً من الأسرار، حتى اللحظة التي تتفتح من حوله تلك الثمرة. كان كالأجَمَة التي لا يرى فيها اللص إلا الأرق، وإلا الحلم بأن تستيقظ يوماً وقد أينعت من جديد.

أما انتقام الأمهات فقد كان يتهيأ للانفجار قوياً عنيفاً. كانت كل امرأة تستعد لتروي غلة الثأر عاجلاً أو آجلاً، وتقدم الأضاحي لتعدد الأزواج البدائي الذي لم يكن للوجل فيه من مهمة إلا أن يجني البقاء والاستمرار. تجني المرأة الثمار، ويلتقط الرجل النوى، فإذا كلاهما يؤلفان معاً السلم المفضي إلى الغاية، ويرسخان جذورهما في الأعماق رغماً عنهما. وسي مختار الوصي الثقيل، يتعرض بدوره لهرب الأمهات، النساء المهجورات اللواتي كنَّ يسممن موته قطرة قطرة، ويثقلن ذلك الجسد الفاسد بالدموع الغزيرة اللزجة التي سفحها بلا وعي، والتي يبرز منها الآن شبح ولد ككامل، زوج واحدة، هي احدى بناته على الأرجح... ولن أعود إلى ذكر اسمها. هل كان سي مختار على ما يشبه اليقين من أمر كامل؟ كامل الذي دعاه ببراءة إلى حفلة الزواج؟ وهل تراه اصطحبني معه ليحول وجودي دون إثارة فضيحة، أنا الذي كنت أجهل تقريباً كل شيء في ذلك الحين؟

كانت أم كامل في قسنطينة، واحدة من أولئك العشيقات القلائل اللواتي احتفظ بهن سي مختار، عدة سنوات، لأنه كان من جهة واثقاً بأنه عشيقها الوحيد؛ وكان من جهة أخرى يكره طبقة النبلاء المتسترين بالتقوى، تلك الطبقة التي كان زوجها أحد أفرادها. وفي النهاية، لم تلبث منافسة حادة أن احتدمت بين الزوج المخدوع، الذي كانت له عشيقته أيضاً، وبين سي مختار الذي كان يطمع بانتزاع هذه العشيقة منه، بعد أن احتلَّ مكانه من قبل إلى جانب زوجته. ودخل ابي في الصراع، أبي الذي كان في ذلك الحين أقرب أصدقاء سي مختار. وتفصيل ذلك: أن أبي وسي مختار علما بأن ذلك المتسربل بالتقى، الأب الشرعي لكامل، كان يحب، خلافاً للشرع الحنيف، امرأة كاتب عدل مرسيلي، من وراء البحر، هربت مع وجيه من وجهاء عنّابة...

وهنا توقف رشيد فجأة، وراحت أسنانه تصطك؛ فناولته غطاءً من الصوف... وعَبَرت عينيه نظرةٌ قلقة، وانساب فيهما احمرار يشير إلى نوبة جديدة:

– قل لي، مراد، قل الحقيقة! أتظن أن الحمى هي التي تطلق لساني، وتجعلني أتكلم؟

فأجبت، وأنا أحاول الضحك:

– لا، لا، أكمل... ومن كان ذلك العنّابي؟

– كان ذلك العنّابي أباك... سيدي أحمد... أباك الحقيقي، الذي اختطف امرأة كاتب العدل، ثم هُجِرَ بدوره في مدينة المياه. نعم، لقد أفلتت الفرنسية من أبيكَ، لتلحق ذلك المتستر بالورع، والذي كانت زوجته في ذلك الحين عشيقة سي مختار، وكان سي مختار يحتفظ بها كرهينة، لأنه هام هو الآخر بالفرنسية في مدينة المياه نفسها، حيث كان أبوك، صديقه الحميم، يعرض ظفره، قبل أن يسلبه إياها ذلك التقي. لقد أغوى رجلُ الصلاح تلك الفرنسية واضعاً بين يديها كل ما يملك، باندفاع مجنون، حتى أنه أسكنها في أكبر فندق في قسنطينة، يربض إلى الشمال، قريباً جداً من أطلال «سيرتا». وكان سي مختار يعلن أمام سيدي أحمد، العاشق المخدوع، أبيك نفسه، بأن هذين الزوجين غير لائقين بضوء القمر، تحت الأبواب الأثرية، ويقسم أن يهين التقيّ مرة أخرى، وأن يثأر لسيدي أحمد. ولكن الشقيّ الكهل كان له كثير من الأصدقاء، فهو أعجز من أن يخلص لهم جميعاً. لقد كان ارتباطه بأبي لا يقل عن ارتباطه بأبيك...

كان سي مختار لا يجرؤ أن يواجه نفسه بالحقيقة، وربما كان لا يعرف بأن كل ما كان يطمع فيه هو أن يسلب التقيّ عشيقته الفرنسية فقط، بعد أن سلبه زوجته التي حملت بكامل في ذلك الحين؛ ولكن سي مختار لم يعترف بأبوته له، تلك الأبوة التي لَصقت بداهةً بالأب الشرعي، هذا التقي الذي حل محل أبَيك، نعم، أبيك... وكان هناك من ينتظر سي مختار عند المنعطف...

وقاطعتُ رشيداً بلهجة فيها شيء من الغضب:

– أي منعطف؟

وكان أثناء ذلك يتابع حديثه، والعرق يتصبب منه بقطرات كبيرة تحت الغطاء.

– كان أبي هو الذي وقف عند المنعطف، أبي العاشق الرابع... كان هو وسي مختار مرتبطين منذ مدة طويلة، ليس بصلة القربى، بل بميلهما المشترك إلى نسج الحيَل والألاعيب، والاغتصاب، والتحدي؛ كان أبي، إذ ذاك، على صخرة قسنطينة. كضرب من القنطور، في تحفز دائم، يدور ذات اليمين وذات اليسار في رحلات الصيد التي لا تنتهي، كما لو أن القدر، الذي جعله يولد بعد عام «1830» بقليل قد حكم عليه بهذه المذابح التافهة، هو الذي كانت حياته الجريئة يمكن أن تكلل بالمجد لو استطاع أن يدير بندقيته نحو الغزاة، بدلاً من إطفاء غلّه في مطاردة الخنازير البرية، وبنات آوى...

إني لأقول ذلك عن أبي دون أن تقع عيني عليه، لأنه قضى بنار بندقيته نفسها، قتل في أعماق مغارة من قبل مجهول يبدو أنه هرب، أو اختفى أثناء التحقيق. ولم يستطع أحد حتى الآن التحقق من هويته. وما أهمية ذلك؟... لنعد إلى حديث الفرنسية... إنها لم تمكث في الفندق أكثر من أسبوع، حتى كان سي مختار بالتواطؤ مع أبي، قد اختطفها في وضح النهار، وهو يعرض عليها نزهة في عربة. كان الشقي الكهل يمسك بزمام العجلة، وكان أبي يتبعه على حصان، وبندقيته في يده، ولكن لم تكن هناك معركة، لقد اقتيدت الفرنسية المخطوفة إلى الأحراج إلى مغارة يعيش فيها اليوم المحكوم عليهم بالموت من أهل قسنطينة. وفي هذه المغارة اكتشفت جثة والدي. كانت عنقه مثقبة بالرصاص. أما البندقية الفارغة فكانت ملقاة عند قدميه. وعندما أتيت الى الحياة، عندما ارتفعت صرخاتي الأولى بين لعنات أمي الأرملة، كان التحقيق يتابع مجراه.

10

لا يَدُرْ في خَلدكَ أن كل هذه الخيانات، في ذلك الحين، كانت مبالغةً أو متجاوزة الحدود؛ فإن الأبهة التي كان الأتراك يحرصون عليها، وتمركز الثروات في خزائن بعض القبائل، واتساع رقعة الوطن، وعدم تماسك أهل المدن، كل ذلك لم يستطع الصمود أمام الانقلاب الهائل الذي فرضه الاحتلال. أما رؤساء القبائل في الجزائر. هؤلاء الذين كانوا يستمتعون بالكنوز، وكان عليهم أن يحافظوا على التقاليد، فقد قُتل جُلّهم، أو سُلبت أموالهم خلال المعارك الدموية التي استمرت ستة عشر عاماً. ووجد أبناؤهم أنفسهم أمام كارثة لا مخرج منها: كانت الهزيمة قد دمرتهم، لقد طردوا من ديارهم، وأهينوا، ولكنهم ظلوا يحتفظون ببريق من الأمل. فقد أفادوا من السادة الجدد، وأصبحوا أغنياء من المال الذي ورثوه عن آبائهم، هذا المال الذي قبضه الآباء تعويضاً عن الأراضي التي امتلكها المعمّرون. كان الآباء يجهلون قيمة هذا المال، كما أنهم لم يستطيعوا، أمام التطورات الجديدة التي جاء بها الاحتلال، أن يقدروا الكنوز التي أنقذت من النهب حق قدرها. لقد خيل إليهم أنهم امتلكوا زمام الثروة أكثر من أي وقت مضى. لقد قتل الآباء في معارك عبدالقادر، (الظل الوحيد الذي استطاع أن يمتد فوق رقعة الوطن الشاسعة، رجل السيف والقلم، الزعيم الوحيد الذي كان قادراً على توحيد القبائل، ليرفعها إلى مستوى الأمة، أو الدولة، لو لم يأت الفرنسيون، ويحطموا دفعة واحدة كل جهوده التي وجهها أول ما وجهها ضد الأتراك ولكن الاحتلال كان شراً لا بد منه، كان طعماً موجعاً يحمل معه وعداً بالتطور لشجرة الوطن التي أخذت الفأس تُعمل فيها ضرباتها... وكان على الفرنسيين، كما كان على الترك، والرومان، والعرب، من قبلهم، أن يتمكنوا في الأرض، رهائن الوطن الذي يتمخض، الوطن الذي كانوا يتنازعون خيراته...) لم يستطع هؤلاء الآباء أن يحصوا ثرواتهم بدقة. ووجد أبناء الزعماء المغلوبين أنفسهم أغنياء بالمال، وبالمجوهرات؛ ولكنهم أشبه بالمحرومين. لقد أحسوا الإهانة حتماً، دون أن يحتفظوا في أعماق خذلانهم بأي ميْل إلى القتال الذي لم يتذوقوه. وهكذا كان عليهم أن يتجرعوا الكأس حتى الثمالة، وأن يبددوا المال، ويأخذوا مكان الأيتام في مأدبة اللئام.

وحينئذ، اشتعلت نيران المجون... كان ورثة الفرسان الصناديد يثأرون لأنفسهم بين أحضان أنصاف البغايا؛ وكانت ولائم، وكان استهتار، وكانت مناضد للقمار، وأسفار في الدرجة الأولى وجهَتها «الوطن الأم»؛ وأخذ الشرق المستعبد يصبح مركز الملاهي، ويستقطب العبث والمجون. وكانت نساء الموظفين الصغار يجتزن البحر في

الاتجاه المعاكس، ويعرضن أنفسهن للبيع في زوايا الحدائق...

أما زوجة الموظف الصغير الذي أُختطفت ثلاث مرات، فاتنة سيدي أحمد، والتقي، وسي مختار، فكان عليها أن تختفي للمرة الرابعة من المغارة التي عثر فيها على أبي، متصلباً بارداً، بقرب البندقية، بندقية الصيد التي تخصه، والتي خانته، كما خانته الفرنسية الهاربة مع سي مختار على الأرجح...

لقد اختطفت ثلاث مرات، تلك الفريسة السهلة، فريسة سي مختار، أبي كامل على وجه التحديد، وأبي نجمة على الأرجح، نجمة النسخة الدقيقة عن الفرنسية التي لا ترتوي، الفرنسية التي اختطفت ثلاث مرات؛ وربما كانت الآن جثة هامدة؛ أو مجنونة؛ أو تائبة؛ من يدري؟...

مرات ثلاث؛ اختطفت تلك الهاربة التي ليس لها من عقاب الا ابنتها؛ فان نجمة ليست ابنة لالا فاطمة...

وقاطعته قائلاً:

– كنت أعرف ذلك. حقاً إن نجمة هي ابنة لفرنسية؛ وإن أردت الدقة؛ ابنة يهودية؛ حسبما أفضت اليّ أم كامل – لالا نفيسة – قبل الزواج، مدفوعة بغيظ الحماة من دون شك.

11

ومرت نوبة الملاريا، ولم يعاود رشيد حديثه قط، كان يبدو أنه يعتبر كل ما قاله هذياناً في هذيان، ولم أشأ أنا بدوري أن أعود اليه، لأني كنت أعتقد أني على علم بكل ما أفضى به اليّ... ولكن أم كامل لم تحدثني بكل شيء؛ لم تقل لي مثلاً أن سي مختار كان منافس زوجها الراحل، منافسه لسببين، وإن شئت تحت عنوانين: لأنه خاطف زوجته، وعشيقته على التوالي. ولم يكن ذلك أشد ما يثير الخوف في رشيد؛ فمن عساه يكون قد قتل المنافس الثاني، قتيل المغارة؟ إذا لم يكن هو قاطع الطريق الهرم، والغاوي العتيق، سي مختار، الشيخ الذي لا ريب في أنه أبو كامل، وأبو نجمة، في الوقت ذاته؟... وهو على الأغلب القاتل الذي يطارده ابن القتيل دون أن يعرف السبب. إن رشيداً لا يستطيع أن يعرف ما أعرفه أنا... انه لم يتعرف على أم كامل التي كشفت لي القناع عن أشياء أخرى. نعم، إن أم كامل كانت على علم بالقصة كلها، قصة الطفلة التي تبناها الزوج الراحل للالا فاطمة، كانت تلك الطفلة نجمة، التي لم يكن عمرها ليزيد في ذلك الحين على السنوات الثلاث، نجمة التي تخلت عنها أمها الفرنسية، وأسلمها سي مختار إلى زوج لالا فاطمة التي عرفت بعقمها. لم يذكر سي مختار أنها ابنته على وجه الدقة، عندما أسلمها الى الزوجين المحرومين من الولد، فلم تتركهما منذ ذلك الحين. والتحقتُ بها عندهما، بعد طرد أمي، وموت أبي – سيدي أحمد – بعدة أشهر... لم تذكر لي أم كامل كيف وصلت اليها هذه المعلومات. لم أصدق ذلك في حينه. لم أكن أعرف حينئذ سي مختار، ولا رشيد، ولا الأخضر...

12

وقدمَتْ إلى قسنطينة دون أن يدري رشيد كيف تم ذلك. لم يستطع قط أن يعرف كيف قدمَتْ، لا عن طريقها، ولا عن طريق سي مختار.

لقد تم لقاء رشيد، والفتاة المجهولة في مستشفى كان سي مختار يكثر التردد إليه... كان رشيد يكاد يسقط على الأرض من شدة النعاس. كان عائداً عند أمه، في الصباح، حين ناداه سي مختار ليقدم له النصائح. (وكان الشيخ ورشيد قد أمضيا ساعات عديدة معاً). وقاده بغيظ إلى المستشفى، حيث كانت تقف امرأة، امرأة شابة، كئيبةً، ذاهلة؛ وانهال سي مختار على يديها يقبلهما، ويتمتم بكلمات فيها الغَزَل الرقيق، والبركات الأبوية ثم ألفى رشيد نفسه وحيداً مع المرأة في الظلام. (كانت نوافذ المستشفى مغلقة). وانتهز سي مختار فرصة غياب الطبيب، وسار إلى لقاء المرضات اللواتي كان يعرفهن جميعاً، واللواتي كان أغلبهن قد تركن الحجاب، بتأثير ذلك الشقي الأشمط على عائلاتهن...

الفصل الرابع

1

«لقد جاءتْ إلى قسنطينة. بأي طريقة؟ لا أدري. ولم أتمكن قط من معرفة ذلك. كانت تقف كئيبةً ذاهلةً، في صالة أحد المستشفيات، حيث كان سي مختار يكثر التردد، (فقد كان رفيق الطفولة للطبيب الذي أصبح فيما بعد المشرف العام)، مستشفى قادني إليه بغيظ، ذات صباح، بين المرضات اللواتي يعرفهن جميعاً، وقال لي ذات يوم: «ليس بينهن أوروبية واحدة، ولولاي – أنا والطبيب – لكنَّ جميعاً محجّبات. لقد التقطناهن لدى خروجهن من المدرسة، وانتزعناهن انتزاعاً من أهلهن...» ومكث طوال الصبيحة، وهن يحطن به، أولئك الصبايا الخجولات، المنهمكات في العمل، اللواتي لا يزيد عمرهن عن العشرين. كان يناديهن عَلَناً «بناتي»، وهو يتحدث من وراء ظهر الطبيب، دون أن يلتفت إليه، كما لو لم يكن المستشفى إلا داراً من دور سي مختار، وليس الطبيب الا أحد الموظفين الذين يأتون دونه في المرتبة، ودون الصبايا الباسمات، اللواتي يعرفهن سي مختار جميعاً، ويعرف آباءهن وأجدادهن... هو الذي طاف العالم، وصلَ أوروبا عن طريق تركيا، وكاد يُرجَم بالحجارة في العربية السعودية، ومثّل دور «المالا باري» في بومباي، وبدَّد إرثه في مارسيليا، وفيشي، ثم عاد إلى قسنطينة، قوياً، متماسكاً أبداً، يستعصي على الدمار... هو الذي وظَّف ثروات أخرى عند النساء، وصبية السوء، ورجال السياسَة، يُعِدُّ زواجاً، ويهدم آخر، ويحبك المؤامرات، ويقلب المدينة عاليها سافلها، ليستعيد المال الذي ضيعه، مستعداً أبداً لاصطناع الافلاس، أو للشجار، مبدلاً بسرعة عجيبة أسنانه المستعارة، وثيابه التي لا نظير لها. ولكنه لم يعد يبتعد عن مسقط رأسه، ولم يبق عنده إلا أم هرمة، شارفت المائة، وما تزال تملك نشاطه وحيويته. كان يعيش دون امرأة، دون مهنة، يقتحم الأبواب، ويتقيأ في المصاعد الكهربائية، كثير النسيان، منصف كالأب المتسلط في الأسر القديمة، مبتكر علوم ليس لها غد، أفقه من الفقهاء أنفسهم، يتعلم الانجليزية من فم جندي، ولكنه لا يفظ أبداً كلمة فرنسية دون أن يشوهها، كما لو كان يفعل ذلك عن مبدأ. كان ضخم البنية، ضيق النَّفَس، محدودب الظهر، متين العضلات، عصبياً، أصلع، مفوه اللسان، محبّاً للشجار، متكتماً، عاطفياً، فاسداً، محتالاً، ساذجاً، شهيراً، غامضاً، فقيراً، أرستقراطياً، علاّمة، عطوفاً، فظاً، متقلب الأهواء، ينتعل حيناً خفاً من المطاط، وتارةً حذاءً من الصوف، وطوراً صندلاً، أو نعلاً رقيقاً. ويرتدي الكشمير، والكتان المخطط، والحرير، والسترة المفرطة في القصر، والبنطال المنتفخ، والصدار المصنوع من الجوخ الانجليزي، والقمصان عديمة الياقة، والبيجاما، والبذلة الكاملة، يرتدي كل هذا الخليط من الأزياء دفعة واحدة، بعضه فوق بعض، ثم تراه يضع فوق ذلك كله البرنس، ومعطف (الكافردين) المسروق، وطاقية الصوف والعمامة الناقصة، المزدحمة الطيات، المشبعة بالعطور.

وقد عاصر سي مختار المدينة، وهي في المهد؛ وتلقت منه صبايا المستشفى حلواهنّ الأولى، وسوارهن الأول، وعشيقهن الأول، (فالشيطان الأشمط ألقى بي، أنا نفسي، في أحضان عدد لم أعد أذكره من النساء. خلال نشاطه المهووس كسمسار ووصي.)

ولكن المرأة التي أراني إياها هذا الصباح بدت، وكأنها لا تعرف تماماً مع أي شيخ عربيد، ناعم، تتعامل! لم أرَ قط امرأة مثلها في قسنطينة؛ بهذه الأناقة، بهذا التوحش، في شموخ غزالة لا مثيل لها، حتى ليخيل إليك أن المستشفى لم يكن إلا شركاً، وأن الأنثى الفاتنة كانت على وشك أن تتهاوى على ساقيها النحيلتين، المصنوعتين لرمال الصحراء، أو أن تنطلق هاربة بأقصى ما تستطيع لدى أول حركة يتجرأ إنسان أن يباغتها بها.

وتركَنا سي مختار وجهاً لوجه، بين بابين، فريسة للصمت، وللأهواء المذعورة، في ذلك المستشفى المثالي حيث تبدو الأمراض مفتعلة، لشدة ما تبديه المرضات من رقة ولطف، ومن براعة فائقة... «أنظروا الينا؛ لسنا فرنسيات، ولكن طبهم، وأساليبهم، لم تعد سراً بالنسبة الينا، نحن بنات الأسر العريقة، العربية، أو التركية، أو القبيلية».

كن كلهن سمراوات، وبعضهن قريبات إلى السواد. لا أعرف كم عدد هؤلاء البنات غير المحجبات، اللواتي يهرولن، وهن باسمات، بين أوائل الطب، والمجلات المصورة، ومنافض الرماد الهائلة الحجم، بينما كنت أقبع دون حراك، أمام المرأة التي لم يكن لها سيماء المرضات، ولا هي بالمريضة... (لا شيء من ذلك مطلقاً!).

تبعت سي مختار، بينما كنت أكاد أسقط من النعاس، بعد ليلة من التشرد. لقد ناداني، ليوبخني، (ذلك الشيخ السافل كان ينتصب أمامي كرقيب صارم). أي قدر، أية عناية ربانية ساخرة، جعلتني الرفيق الملازم أبداً لسي مختار! إنني لا أستطيع تحديد الفترة التي بدأ فيها تعارفنا جيداً. كان أبداً يؤلف جزءاً من المدينة المثالية التي ترقد في ذاكرتي، منذ سن الختان غير المحدد، منذ سن الهروب من البيت، منذ الأسابيع الأولى التي أعطتني فيها السيدة كليمانت لوحاً حجرياً، كان بالنسبة لي أحد أرواح الموتى في قسنطينة. ولم أره يهرم، لم يهرم قط، ومتى كان لباربروس التاريخ، أو لجوبيتير الأسطورة وجه محدود، وعمر نهائي؟

لقد عشت في قسنطينة، مع الفيلان، والسلطانات، مع قطارات المحطة التي لا تنام، وشبح سي مختار، كان يمر أحياناً أمام دارنا، كنت أسرع، ككل الأطفال، وأقتفي خطاه، منتزعاً منه بعض القروش. كنت ألاحقه، وأرميه بالحجارة. كان يخيفنا، ولكننا كنا نحبه بطريقة الأطفال البدائية، ولم نكن نقوى على الابتعاد عنه؛ فالأمثال التي نحفظها، والحكايات المسلية، والقصص المحزنة، كانت كلها من سي مختار. ولم يكن أحد يجهل آراءه عن الحرب، عن الدين، عن الموت، عن النساء، عن الخمر، عن السياسة، عن الجميع وعن كل فرد، عما يفعل سي مختار، وعما لم يفعله، عن الناس الذين حاربهم، والناس الذين غمرهم باحسانه. كيف يستطيع رجل من هذا الطراز أن يرتبط بأي انسان؟ لقد كان باستطاعته أن يؤلف من أتباعه جيشاً صغيراً... ومع ذلك، فقد مرت فترة أخذ يخصني فيها يوماً بعد يوم باهتمامه من دون الآخرين، ويدفع عني ديوني. ولكنه رفض الغرفة التي عرضتها عليه في منزلنا. كان ذلك في الفترة التي دخلت فيها المدرسة لأعزي أمي من جهة، ولأكفر عن تبديدي ارث أبي من جهة أخرى. لقد طلبت أن أسجل تلميذاً داخلياً في المؤسسة الوحيدة التي كان التحصيل فيها باللغة العربية أمراً ممكناً في المدينة...».

2

وكان رشيد يعود إلى الصبيحة الرمادية، دون أن يستطيع إبعاد الشَّبَح الذي انتصب منذ اللحظة الأولى بين الغزالة المضطربة، واليتيم المذهول: «يا للشقي الهَرِم! لقد قدمها اليَّ بين بابين» «إنها ابنة عائلة هي عائلته في الوقت ذاته»، قال ذلك، وتركني وحدي معها، فريسةً للصمت، للرعب، في هذا المستشفى حيث كانت الأمراض تبدو مصطنعة، كما لو أن الشيخ الخبيث أنشأ هذا المستشفى على هواه، ليُذْهلَ الشاب المسكين الذي كنته، مأخوذاً بالأوهام. وأخذ الوهمُ يبتسم لي، في عظمته المجهولة، بصور وأبعاد خيالية، راحت تجسد مدينة الطفولة التي كنت أحلم بها، ذلك العالم القديم الذي كان يبهرني، كفندق، أو صيدلية جميلة. عالم أسطوري فيه سلطانات بلا سلاطين، ونساء بلا وطن ولا مأوى، عالم السجاد القاتم، عالم الأمراء والأشقياء.

لقد أدخل الرعبَ إلى قلبي اختفاءُ سي مختار، وأثار فيَّ فكرة انتهاك الحُرُمات، أمام الغريبة التي ما تزال تبتسم لي، غريبة ليست من ساكنات المدينة، ولا هي بالمريضة، ولا بالممرضة، ولكنها بكل بساطة سلطانة.

وتفعل رقية السحر فعلها؛ بالتواطؤ الوَجِل الذي كانت تظهره لي تلك الابتسامة؛ دون أن أقوى على الكلام. ومكثنا دون حراك في عُمق الصباح الباكر؛ ولم نلاحظ أحداً حتى سي مختار، رغم غدواته وروحاته. (كان



الخبيث يتحاشانا بطريقة شيطانية). كانت المرضات يتوارين الواحدة تلو الأخرى، وكانت الرعشة العصبية، والسجاير، والتنهدات التي تصطنع الجرأة، لغتي في الاتجاه إليها دون أن أنبس بكلمة. كان الجو الساحر وحده يشدنا إلى بعضنا كما لو كنت في حافلة ترام، أو أوتوبيس؛ كان وجهها، وثيابها النفيسة، وشعرها المعقوص بالحرير الأحمر، كل ذلك يؤلف هالة تسبح في الظلال، غرقى بالنظرات الضائعة. لم تتملكني الدهشة لوجودي هناك، ولم أعد أسمع دقات الساعة الجدارية التي كنت أحدق فيها النظر من حين إلى آخر، لأتماسك قليلاً، وأطرد عني شبح التطير والوساوس: إن هي إلا دقائق؛ وينضم العَقْربان أحدهما إلى الآخر.. إنها ساعة الظهيرة.

3

غادرتُ المكان معها، ولكنها لم تلبث أن ابتعدت عني وتركتني في زاوية زقاق، حوالي منتصف الليل، وكنت قد توقعت ذلك منها. تركتها وابتعدت، بخطوات سريعة واثقة، دون كلمة وداع. ومنذ ذلك الحين، لم أتلق منها ولا من سي مختار أية إشارة. لقد ادعى أنه لا يعرفها تحت اسمها الجديد، (فقد تزوجت حديثاً كما أخبرني الشيخ السافل بايجاز)، واستخلص بلهجة متعالية: «لقد كنت في حلم... فعليك بالهدوء، وإذا ما حاولت لقاءها من جديد، فستكون موضع التشهير، والهزء والخيانة... عليك بالهدوء!».

4

وفي الخامسة والسبعين، قرر سي مختار أداء فريضة الحج، تُثقله ذنوب لا حصر لها، حتى أنه، قبل ركوب الباخرة، في اتجاه الديار المقدسة بثمان وأربعين ساعة، تنشق زجاجة كحول «ليتطهر» كما قال لرشيد.

كان رشيد حينئذ هارباً من الجندية؛ فقد عاد من طرابلس الغرب، وأخذ يعيش في أحراج الريميس، في مكان لا يبعد كثيراً عن المغارة الملأى بالذكريات المشؤومة...

كان سي مختار يقوم بزيارات لغوغاء المنطقة، وكان يؤثر البقاء أطول مدة ممكنة مع رشيد؛ لم تكن هناك إلا ولائم على ضوء المشاعل، ولائم هائلة (لقد صرعوا مهراً ذات يوم). وفي خلال ذلك كانت الصداقة الغريبة تشتد متانة بين الشيخ السبعيني، والشاب الغر الذي ما فتئ يلبس باعتزاز لبس الجندي الذي كانه منذ فترة قريبة.

وجاء يوم الجمعة، فتوقف سي مختار عن الشراب، وخصص لنفسه مقداراً محدوداً من النشوق، وتوضأ وصلّى، واشترى زجاجة كولونيا، وانهمك في غسل سترته بضربات قوية من أقدامه في ماء الشلال البارد، وهو يتكلم عن الديار الشريفة التي سبق له أن زارها قبل نصف قرن، والتي يود «أن يراها للمرة الأخيرة». كان رشيد ينظر إلى الشيخ المنهمك في عمله، وهو ساهم الفكر، دون أن يتوقف عن الشراب والتدخين، ودون أن يحاول غسل قميصه العسكري؛ ثم ما لبث أن غادر المخيم خلسة، وعاد في الأسبوع التالي، وهو يعرض تحت أنف الشيخ سجل بحار ملفوفاً، ومسدوداً بفلينة؛ وكانت صورة رشيد (في زي بحار غريب) تظهر في السجل المزور، ولكن تحت اسم آخر، وتاريخ ميلاد آخر، لقد حصل على السجل من بحار متعطل عن العمل، قبل أن يبيعه إياه. ثم ما لبث سي مختار أن حصل بعد عدة أيام على الألفي فرنك التي وعده رشيد بها.

5

لقد استطاع رشيد أن يقف على تفاصيل أوسع من تلك التي كان سي مختار يعرفها؛ فقد استفسر عن تاريخ اقلاع الباخرة، عن الأماكن التي ستتوقف فيها أثناء الطريق، عن البحارة، عن الطعام، عن كل الحوادث الصغيرة التي يمكن أن تحدث. وحتى عن مناسك الحج لم يعد سي مختار يتذكرها جيداً بعد نصف قرن من حجته الأولى. وكان يرى بأن قضية المال لا تقف عقبة إلا في وجه العاجزين أو الأتقياء أو الأغنياء. أما بالنسبة له فإن العقبة الوحيدة تتلخص في أن يتمكن من تسجيل إسمه بين البحارة، وعندئذ يذلل كل صعب، فقد حاول عبثاً أن ينجح في تأمين عمل خلال رحلة طويلة... أخفق في إيجاد عمل حتى في أصغر قارب يجوب الطريق بين عنابة ووهران؛ إنها الأزمة الاقتصادية، إنها البطالة تجتاح الكثير من البحارة حتى القدماء منهم، حتى الأوروبيين. ولكن رشيداً كان قد حزم أمره، وانفرد ناحية بسي مختار، وأسر إليه:

– سنذهب معاً! استعد لذلك، فأنا على أتم استعداد.

– كنت أعرف أنك تريد السفر.

– الكلمة لك الآن، أيها المعلم. فإذا تراجعت فإني ذاهب بدونك.

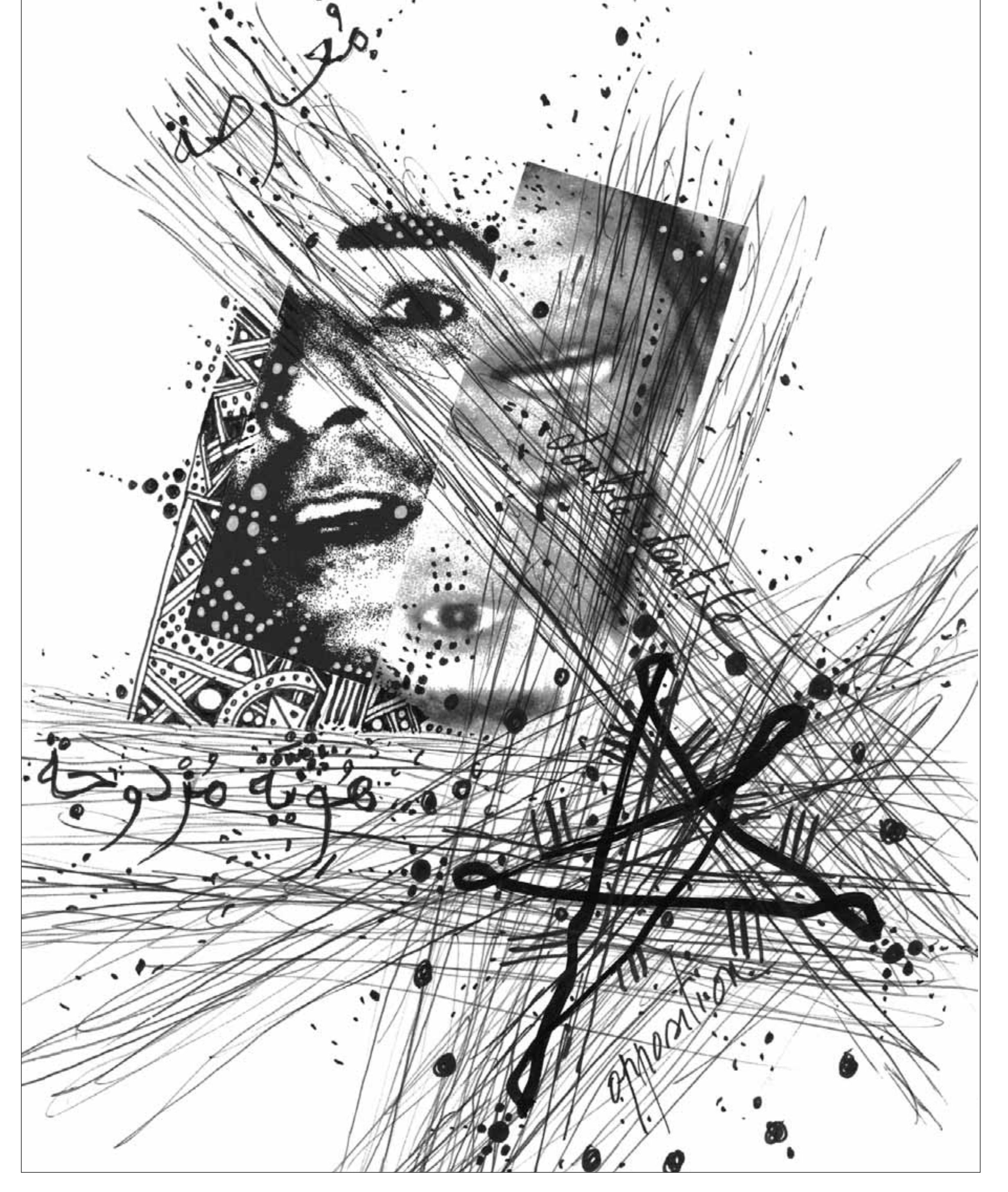
فأجاب الشيخ: لن يحدث ذلك أبداً. إن كل شيء قد أُعدّ سلفاً إن الذين حملوني ذنوبهم ستقع عليهم تبعة نفقاتي. إنهم سعداء، إذ يرون خنزيراً مثلي يذهب بدلاً منهم، ويتذرعون لذلك بأن الحج ليس فريضة إلا على الذين تجاوزت ذنوبهم كل حد، فهم يريدون أن يغسلوها هناك... في اقرب مكان إلى الله... لقد أعددت كل شيء، ولم يبق عليّ إلا أن أبتاع بطاقتي.

6

كان أبو سي مختار مدفوناً في مكة؛ ولذلك وقع الاختيار على الإبن ليتربع مقامه بين أهل المقامات. واستطاعت السنوات الخمس والسبعون أن تهيء له الجو. وما إن اقترب الشهر الحرام حتى كان الشيخ المهرِّج المندوبَ الأول، بلا جدال، ليس لبعض الحجاج الذين كانوا يحيطون به فحسب، بل للمدينة كلها، بل لكل ولاية قسنطينة، التي كانت، بسبب من موقعها أمام تونس، والمشرق العربي، تعد مهد الدين الإسلامي، وموطنه الأول في الجزائر... الجزائر التي قد يمثلها سي مختار بأجمعها، إلى جانب الباشوات المراكشيين، والعلماء التونسيين، وفقراء الهنود، «ومانداراناث» الصين، الذين لهم وحدهم حق التماس الحجر الأسود قبله.

وأخذت الدعواتُ تنهال من كل مكان على سي مختار، قبل الرحيل بثلاثة أشهر. ولما لم يعد يستطيع شرب الكحول راح يختلس بين الفينة والفينة جرعة من ماء الكولونيا عندما تنخفض قليلاً حرارة ايمانه. لقد أخذ يعتقد الآن بأن الله قد هداه، وفاتح رشيداً بذلك، فلم يستطع أن يهزأ به، لأنه كان يعيش في أغلب الأحيان من المال والهبات التي كان المواطنون يغدقونها على الشيخ المسافر، ليذكرهم في صلواته.

وأخيراً، اقتيد سي مختار إلى أقرب مرفأ للإبحار، في هالة من التقى والورع، واستقبل مع مواطنيه الصالحين رسمياً من قبل نائب حاكم عنّابة الفرنسي، في صدر قاعة فخمة. وكاد سي مختار يقلب الصينية، وكؤوس الشراب التي عليها، وهو يحاول أن يدير ظهره لها ما استطاع. وخلال ذلك كانت السيدة، زوجة نائب الحاكم تحرك بنطالها الحريري، وقدماها العاريتان تطفحان من خفها الأخضر المزين بالحرير اللمّاع. كانت نضرة، على شيء من الذبول لدى خروجها من الحمام. كانت تتحدث عن الإسلام، بضرب من الانفعال، وهي تسحب أنفاساً من سيجارة طويلة، كما لو أنها تتحدث عن إحدى دور



الأزياء، أو عن مصيبة حلت بأحد مخازن العقاقير، علها بذلك تثير نوعاً من الرثاء، أو التعزية، أو العطف في وفد من «البومات» المهتزة، تقف كل بومة منها على أتمّ استعداد للسقوط من الأغصان العليا: لقد كان أصغر الحجاج سناً لا يقل عمره عن الستين، وكان سي مختار أمتنهم عوداً، انه بينهم الحاج الوحيد الذي قد مّن دون عصا، أو عكاز، وهو يشد على زجاجة الكولونيا تحت المسبحة التي يتصبب منها العرق...

7

كان رشيد ما يزال في قسنطينة، كان يخب من زقاق إلى آخر، دون هدف، ودون كلل، بحثاً عن الشيخ الهَرِم، ثم تدبر ما يكفيه للسفر بالقطار حتى عنّابة... لا أكثر. كان قد عَزم على الانتصار بأي شكل كان، على أن يكتشف سي مختار. والتقيا وجهاً لوجه تحت أنوار الرصيف الكاشفة، ليلة السفر، في الزحام... وانتظرا نهاية الصفارة الأولى، وهما يتكلمان بما يشبه الصراخ في وقت واحد خلال الفوضى، وتوديعات العنابيين الصاخبة، بينما كانت الأفواج الأخيرة ترتقي السلم.

وصاح رشيد:

– دعني، ولأذهب إلى الجحيم!

– أتظنّ نفسك مع أمك، أمام الأوتوبوس؟

– إني أنتظر الرجل النقابي، وبدونه لا يمكن أن يتم شيء. إنّه مشغول في هذه اللحظة. انه يصعد وينزل مع بحارين آخرين. إنهم يحاولون القيام بإضراب.

– أتسمع؟

ودوّت الصفارة للمرة الثانية...

لم ينقطع الضابط عن الصفير. كان يرى من مدخل السفينة. وكانت الحبال تتدلى من جانبي الباخرة؛ وتوقفت الصفارة، وأخذ الضابط يتكلم بصوت مرتفع، ولم يعد يهتم بادارة العمل، بل راح يتابعه بلهجة رصينة مقنعة، كفلاح أثناء الحراثة، يحاول أن يثير نشاط الثور الخامل في نهاية خط المحراث. كانت الأرصفة، والبواخر، والمدينة برمتها ترقب هذا الصمت اليقظ التي لم تعد تكدره تمنيات قريب تأخر عن الموعد، ولا زمجرات «الورش» القريبة التي بدت هي أيضاً وكأنها اختفت، أو هي على وشك الاختفاء، أمام نداء المدى الرحب، والليل المقفر من النجوم الذي اختلط بصفحة الماء الثقيلة المصقولة.

وهمس رشيد:

– اذهب؛ رافقتك السلامة. إني أنتظر منذ عشر ساعات... ليحلّ بي ما يحل... لم يبقَ لك إلا الوقت الذي يمكنك فيه الصعود. قد يرفعون السلم في لحظات...

وأجاب سي مختار:

– إتبعني، ماذا تنتظر؟

8

لقد قايض رشيد ملابسه شبه العسكرية بقميص قطني مخطط، وبذلة عمل زرقاء، وقبعة خشنة من الصوف الكستنائي وحذاء رقيق كأحذية العدّائين، معقوف، متصلب، متآكل الأطراف، كان يضطره إلى أن يرفع رِجْلاً، ويضع أخرى، على طريقة اللقلق. وربما كان هذا الوضع غير المعقول هو الذي دفعه إلى الاقلاع بصورة أقوى واشد من نداء سي مختار الذي لم يسمعه جيداً. وتبع رشيد النداء؛ وساقاه ترتجفان قليلاً، دون أن يجيب بشيء. لقد تعمد أن يبدو مع سي مختار في وضع المتخاصمين المتشاجرين أبداً حتى الموت. اتفقا كلاهما فجأة على أن يمثلا دوراً حاسماً. واقتربا من السلم. وبدا الضوءان الكاشفان يقتربان باتجاه رأسيهما المحنيين، المتصلبين، بين اهتزاز الحبال، وارتجاج الآلات الهادئ، ولاحا كشبحين مذنبين لن يلبث البحارة أن يزيحوا عنهما القناع، أو يباغتوهما، ثم يقيدان، أو يبعدان في اللحظة الأخيرة، ويكون هذا المشهد، مشهد الرحيل الأخير الذي سيصبح حديث المدينة، وربما أسفت المدينة لسوء تصرف رشيد، وخفة سي مختار، ولكنها ستضيف إلى ذلك أن حيلاً من هذا النوع قد سبق لها أن نجحت في كثير من الأحيان مع آخرين. وتعثر رشيد وهو يصعد الدرجة الثانية، وراح يحاول بأناة أن ينتزع نفسه من سلم الحبال، ليتخلص من الشعور بالفراغ، والريح، وجذب الفضاء، وليتجنب الاستناد على الحبل الرخو، خوفاً من أن تنزلق قدمه أمام رجال الشرطة الذين كان يسمع وقع خطاهم وراءه، عند مدخل السلم؟ كان سلماً بكل معنى الكلمة، ولكنه سلم طويل مهتز، مبتل-. وأخيراً، وصل سي مختار إلى السطح، وواصل رشيد السير... ولكنه أوقف بدوره حين كان قد بلغ نهاية الحبل، ووقف يلتقط أنفاسه. لم يكن قد لاحظ ضابط الدخول، رغم أن سي مختار نبهه إلى وجوده بتحية مدوّية.

وسحب رشيد سجله، ولكن الضابط أعاده اليه دون أن يفتحه، ومر؛ ولم تبد عليه الدهشة لهذا التّصرف، وهذه الثقة، كما لو أن القدر كدره حين ابتسم له في أشد ساعات خوفه واضطرابه. وكما لو أنه كان حقاً أحد البحارة، وقد غاظته هذه الشكليات السخيفة، التي لم تنفذ كما ينبغي. قام رشيد بذلك على أكمل وجه، وواصل تمثيل دوره، فلم يلحق على الفور برفيقه، وترك نفسه يتذوق هذا الدخول في شدق الذئب، هو الذي هرب من الخدمة العسكرية على الأرض منذ أمد قريب، يرى نفسه الآن مجنداً بشكل مزور على سطح باخرة بهذه الضخامة، حيث يتظاهر ضابط الحراسة بمعرفته... كان سي مختار يقضم أظافره، فإن ما لا يقل عن مائة من المسافرين المتسللين قد اكتُشفوا على ظهر الباخرة، وسيقوا إلى السجن في أسفل المركب عندما ظهرت بيزرت للعيان...

ونزل سي مختار إلى البر يشتري لباسين كاملين من ألبسة الحجاج له ولرشيد: شراشف دون خياطة تحزم عند الخصر، وخف دون خياطة أيضاً، وأشياء ثانوية أخرى. وكان رشيد أثناء ذلك قد بسط فراشاً على لوح من الخشب ذي عرض كاف، في حمام غرفة للتمريض، وجد مفتاحها في فتحة الباب. وعند هبوط الليل أخذ مكانه هناك... وهنأه سي مختار. كان يناوله الطعام، وينقل إليه أخبار الرحلة، ناصحاً إياه بالحذر: «الآن قد وجدت مكاناً، فلا تبرحه».

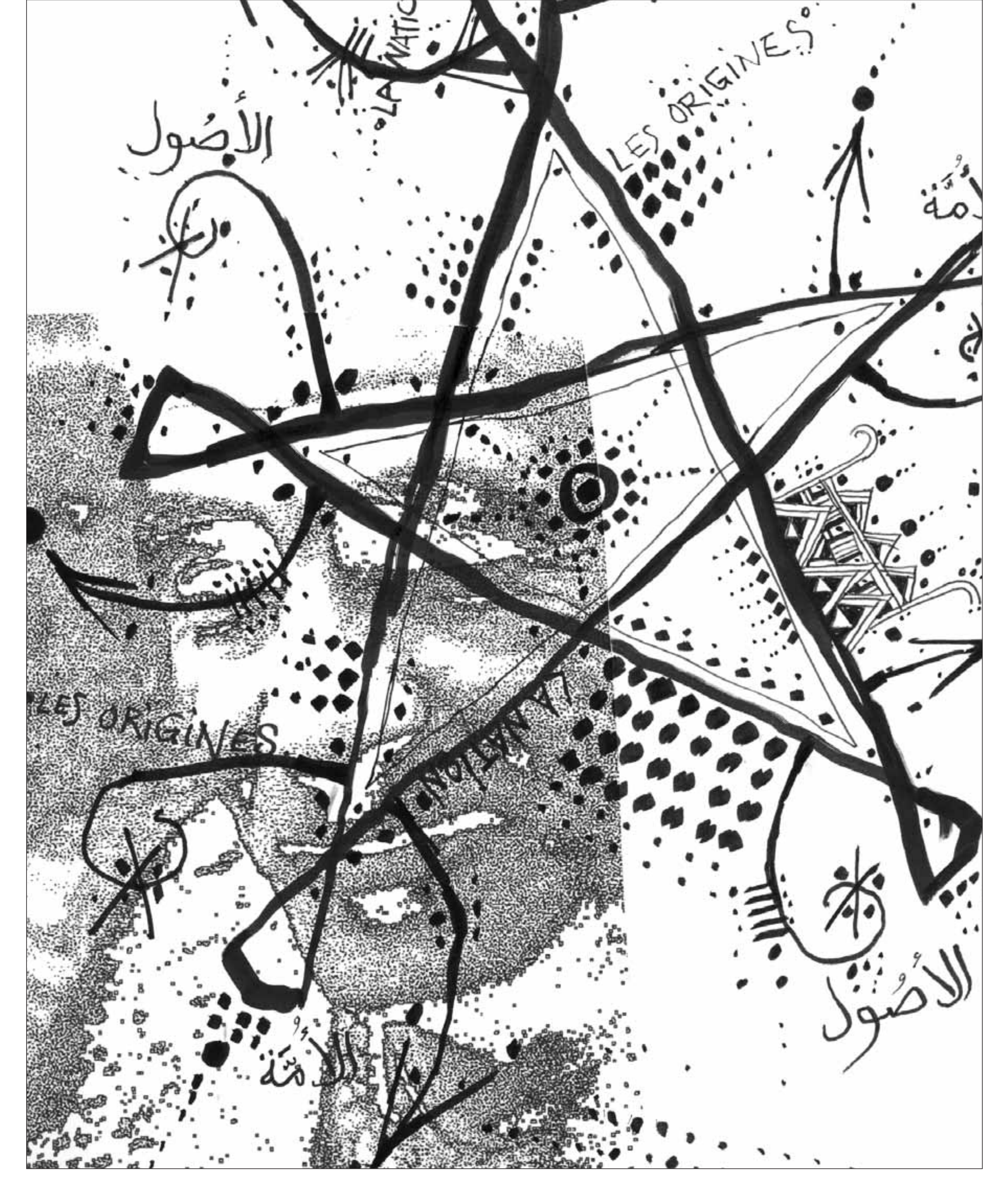
لم يعد بحاجة إلى تمثيل دور البحار، فكل البحارة كانوا معروفين، وكأن كل منهم في مركز عمله.

9

كان رشيد ما ينفك يختلط كل ليلة بالمسافرين؛ ولم يكن يَقْوَى على مغالبة ميله للاستمتاع بجولة، كلما أحس الجو رائقاً جميلاً.

وتوقفت الباخرة في بور سعيد نهاراً كاملاً؛ وكانت تلك فرصة لتبديل النقود بجنيهات مصرية، لسهولة تحويل الجنيه إلى ريالات. وهناك، حسب سي مختار ما معه من النقود فإذا هو لا يكاد يزيد عن أجرة الدليل الإجباري المكلف بمرافقة كل حاج، من جدة إلى المدينة المنورة، حيث قبر الرسول. وفاتح بذلك رشيداً الذي لم يكن يملك أي فلس.

وغابت بور سعيد وراء الأفق. إن هي إلا أيام عشرة، ويطأون الجزيرة العربية. وفي هذه الليلة أدلى سي مختار بالتصريح التالي غير المتوقع:





– إمّا أن نمضيَ في رحلتنا معاً... أو لا...
ولم يُحرْ رشيد جواباً. وتباطأ المحركات، وأخذت سلاسل المَراسي تَصرُّ صريراً عالياً. واعتكف رشيد في غرفة الحمام، وأحكَم دونه الرتاج. وجاء سي مختار يناديه المرة تلو المرة، دون أن يحظى منه بجواب. ورأى رشيد من نافذة السفينة العوّامة الأخيرة المحملة بالرجال والمتاع تبتعد، فارتدى على عجل بذلته الزرقاء، ولف لباس الإحْرام في جريدة ثم فتح الباب، وأخذ المفتاح معه، واجتاز الممر الطويل بخطى موزونة. كان رأسه الحليق يبدو وكأنه لا يلائم كل الملاءمة تنكره في زي بحّار؛ ولكن ما العمل؟ إنه لم يجد أي عون في القبعة الصوفية، ولا في الطربوش الذي أحضره له سي مختار من بيزرت. كان يشد على صرته، لباس الحاج المقبل، ويزيد في سرعته شيئاً فشيئاً، وهو يعدل رباط حزامه، ويحاول ألا يسمع حفيف البنطال الخشن العريض الذي يذكر بأيام هربه من الجيش منذ عهد غير بعيد، ذلك الهرب الذي أورثه هذا التثاقل الذي ليس من الجندية في شيء، ولكنه كان ضرورياً بالنسبة إليه، عند تركه للجيش، ليستدر عطف المارة على الأقل، إذا لم يستطع أن يكسب احترامهم. كان يبتسم للجميع بصورة آلية، وهو يفسح لهم الطريق، ويمسك بنفسه عن إلقاء التحية العسكرية لهم، كأنما هو الذي اختارهم ليكونوا أعلى منه رتبة... ولكنه لم يعد هارباً من الخدمة. إنه لم يكن شيئاً في هذه السفينة التي تبع فيها بكل بساطة ذلك الشقي الهرم، لمجرد العادة فقط، وربما كان ذلك بسبب الخيال، خيال المستشفى، وفتاته المجهولة، خيال تلك الليلة من ليالي الصيف الماضي، لا أكثر... إنه لم يركب البحر لرؤية البلاد، ولا دار في خاطره شيء من ذلك؛ فقد اجتاز قناة السويس، منذ فترة، دون أن يفتح النافذة؛ كما أنه لم يضطرب أقل اضطراب عندما صادف في نهاية الممر منذ لحظات عدداً من الرجال الذين كان يتحاشاهم منذ بداية الطريق. كانوا بحارة، في جماعات متتابعة، يروحون ويجيئون، في كل الاتجاهات، في جلبة وضوضاء. ومر أحدهم على مقربة منه، فاستوقفه، وابْتدره قائلاً:
– هل نزلوا جميعاً؟
وأجاب التونسي:
– لقد تخلصنا منهم على خير وجه. (وتعرف رشيد إلى اللهجة التي كان قد استخدمها هو نفسه، منذ فترة قريبة، واجتاز بها صحراء طرابلس الغرب، وعَبَر الحدود، ووصل إلى طريق قرطاجة، في بنطال قصير، وقميص جندي...) لقد ملأوا الباخرة بالقذارات؛ هؤلاء الخاملون، والأنكى أنهم بهذا الخمول يريدون أن يذهبوا إلى الجنة...
– وأنت، ألا تنزل؟...
– لا أدري، لم أقرر بعد...
– ألا تُعْجِبُكَ جدة؟...
– إذا استثنيت بعض الأعمال، فليس هناك مقهى ولا فندق، وإذا شئت أن تحصل على جهاز راديو فعليك أن تأخذ ترخيصاً بذلك، شريطة أن لا تسمع أغاني، بل تلاوة فقط. إنهم ليسوا كما في مصر. إن رؤساءهم متوحشون، والشعب بائس يعتمد في حياته على إيمان الغرباء. ولكني قد أنزل... هناك بعض الأشياء...
– أي أشياء؟
وأجاب التونسي:
– ذهب. (وكان شديد السواد، ملطخاً بالشحم، تنحدر قطرات كبيرة من العرق على أنفه). نعم، ذهب. ولكن ليس لدي ما يكفي منه... أما بقية البحارة فلا يرغبون في النزول. لقد قام جُلّهم بهذه الرحلة مرات عديدة. إنهم لا يحبون هذا النوع من الوَقَفات... وإذا لم يرغب أحد في النزول، فسوف يستحيل علينا أن نأخذ القارب من أجلنا نحن الاثنين فقط، فصاحبنا هناك لا يوافق.
– ومن صاحبنا هذا؟
– ذاك!
وسار رشيد فوراً باتجاه الضابط الذي حسبه أحد البحّارة (وقد كان على الباخرة ثلاثمائة منهم). وما هي إلا فترة وجيزة حتى كانت مجموعةٌ من حراس مخازن المؤن، وخدم المطعم، والبحارة، ومن بينهم رشيد والتونسي، يأخذون مكانهم في القارب مع القبطان والطبيب.
وهبت نسمة خفيفة رطبت تلك الظهيرة من أيلول، ولكن الشمس كانت أبداً تُثْقل بحرارتها على الخليج الذي يبدو خاوياً، والمدينة التي لا يظهر منها إلا جدرانٌ منخفضة في الأرض الترابية، الملتهبة، البارزة بكل ما فيها للعيان، في عُرْيٍ قاس لا يتحمل النظر. كانت الشمس الحمراء أقرب إلينا من الأرض. ووصل القارب إلى مركز الجمارك، بعد أن اجتاز الصخور الناتئة، وشَعَبَ المرجان، المحاطة بالفضلات، واكتشف رشيد، وهو يدير رأسه، صفوفاً من الأشرعة التي تقلبها ريح المساء، كما لو أن ميناءً آخر انبثق من زمن آخر، ولم يلبث أن غاب في وهج الشمس، في نهاية المكان، ولم تعد جدة أكثر من صحراء مكشوفة للعيان. ولم يبق أمام رشيد إلا أن يتفرس في تلك العمائم الثقيلة التي بدت وكأنها قد تضخمت، وانتفخت مع الرسوم الجمركية، وشاهد الموظفين في أحذيتهم الانجليزية المرتفعة حتى الركب، يرتدون بذلات لا تعرف لها شكلاً، كأنها جمع من مخلفات عدد كبيرٍ من الجيوش الأجنبية. ودار في ذهنه أن آباء هؤلاء الرجال، هؤلاء الدّمى «الأراجوزات» الذين يقطرون صَلَفاً، هم الذين طردوا الرسول من هذه البلاد، وهم الآن يطردون التقدم، والإيمان، وكل شيء آخر، لا لشيء إلا ليسدوا منافذ الصحراء بجهلهم المتغطرس، مدركين أنهم على الأغلب آخر قطيع يتغذى بالغبار. لقد أصبحوا غير قادرين إلا على تبديل ثيابهم الرثة. إنهم يستسلمون للنعاس وهم يتمتمون نفس الآيات التي كان عليها أن توقظهم من رقادهم... وفكر رشيد: «ولكنهم يصنعون ما صنع آباؤهم تماماً» لقد طردوا إلى الأبد الشخص الوحيد الذي استفاق بينهم ذات صباح لُيُفْضي إليهم بالحُلم، (بالأسطورة الغامضة). ولم يشاؤوا السير. كان مضطراً للاستعانة بشعوب أخرى، برجال آخرين، ليقتحموا الفضاء، وليؤمنوا بأن الصحراء ليست إلا الجنة القديمة، وأن ليس هنالك إلا الثورة التي تقدر على فتحها، واحتلالها من جديد... كان على الآخرين أن يؤمنوا بالرسول ويتبعوه، ولكن الأحلام لا تستطيع أن تتلاءم مع كل مناخ... كان يجب هنا – في الجزيرة العربية – أن يؤمنوا بالرسول... أن يمروا من الكابوس إلى الحقيقة والواقع، بدلاً من أن يطردوه، ويضطروه لنقل حلمه إلى مكان آخر، ونثره مع الرياح المؤاتية؛ ولكن الذين خلق لهم القرآن لم يبلغوا حتى الآن مرحلة الوثنية، لم يدخلوا حتى في العصر الحجري، ولا يستطيع أحد أن يعرف أين يقفون، وإلى أين انتهوا، وفي أي انتظار شنيع أمام أرضهم العطشى هم واجمون؟».
واقترب موظفو الجمارك من القارب؛ بينما كان البحّارة يضعون أقدامهم على اليابسة. ثم سادت جلبة عندما صودرت آلة التصوير التي تخص رُبّانَ الباخرة. وراح رشيد يستلطف موظفي ابن سعود، وهو يشق طريقه، ولكن هذا الحادث كان يعرقل تنفيذ خطته؛ فإن الشتائم بدأت تنهال من كل جانب، وراح بعض البحارة يقترحون العودة حالاً إلى ظهر الباخرة، إذا لم تعد آلة التصوير. وتدخل الطبيب في الموضوع، فارتأى أن تقدم شكوى بذلك إلى القنصل الفرنسي. ذلك هو أنسب شيء. وانتز رشيد هذه الفرصة فانطلق بين الجموع، وبعد أن ترك سجله طبعاً في الجمرك، كما كانت القاعدة، والتحق بسي مختار، بينما كان هذا يتجول وحده في الأسواق. وما أن شاهده الشيخ حتى تملكه غضب شديد.
قال رشيد:
– دعني، أنت ترى جيداً أنني أستطيع تدبير أموري. إذهب، واستأجر دليلك، ولا تهتم بي...
– وماذا تنوي أن تفعل؟
– سأرى.
– لا جدوى من ذهابك. إنك لا تستطيع أن تخطو خطوةً واحدة في هذه البلاد من دون مال. إنهم يعيشون جميعاً من الحج، وسلطانهم الشهير ليس إلا تاجر بترول... نحن بحاجة إلى دليل؛ ومن ثم يجب أن ندفع مجموعة كبيرة من الرسوم، (لقد تركت ثلاثين جنيهاً في الجمرك). ثم يأتي توزيع الصدقات في كل مكان... ولن أتكلم عن خروف العيد...
– سأذهب بطرقي الخاصة.
– قلت لك إني أعرف هذه البلاد. إنها لم تتغير كثيراً منذ أربعين عاماً. يمكنك أن تذهب إلى مكة بطريق الاسفلت، ولكن سيبقى أمامك أربعمائة كيلومتر أو أكثر للوصول إلى المدينة؛ وإذا لم تصل إلى المدينة المنورة فكأنك لم تحج.
– سأذهب مشياً على الأقدام. سأجد من يساعدني.
– ستكون طريقك في الصحراء؛ وسيصل أناس من جميع البلدان قبلك. ستموت من العطش. لقد جربت الرحلة فيما مضى... كانت لدي ثروة في ذلك الحين، ومع ذلك فقد عدت خاوي اليدين. ابقَ إلى جانبي.
– ولكن لماذا؟ إن سنك لا تجيز لك أن تكون بمثل هذه الأنانية... لا بد أن أعثر على وسيلة. والتحق بهما التونسي الذي كان يدير فيما حوله نظرات سريعة كأنها تبحث عن شيء.
– ألا تعرفون الرجل ذا السن؟
وأجاب رشيد:
– لا.
– ذاك الذي يبيع الذهب.
وأعلن سي مختار عن جهله بأن تجارة كهذه ممكنة هنا.
– آه، يا أبتاه! إنك ساذج حقاً. إن نصف الذي يأتون إلى هنا ليس في رأسهم إلا شيء واحد هو التجارة. ما أشبه هذا المكان بسوق سنوية كبيرة تقام تحت رعاية الله!... ولكني لا أملك منه شيئاً يذكر مع الأسف...
قال رشيد:
– نعم، ولا سيما أولئك الذين يأتون بالطائرة، ومن هم دونهم في النفوذ. إن السلطات لا توافق على إعطاء جواز للسفر إلا لرجال الأعمال، ورجال الدولة؛ هذا هو الحال عندنا. وإنه لكذلك، دون ريب، في البلدان الشقيقة.
– إني أوافقك. لو كان كل المؤمنين من البحارة إذا! لنفروا مثلي من الحج.
– إنني مسلم كأي مسلم آخر؛ وقد سلكت هذا الطريق خمس مرات... ألا يكفيني ذلك؟
كان سي مختار يهز رأسه موافقاً؛ منشرح الصدر لسماع التونسي يثني على كلامه. ولكن رشيداً استرسل في الموضوع.
– أظن أن البحارة يستطيعون الالتحاق بالقافلة الرسمية. أليس كذلك؟
– ذلك رهن بإرادة القبطان. وما أظنه ممكناً هذه المرة. لن نبقى في الخليج طوال الشهر الذي يستغرقه ڤالبازارڤ. على الرجال جميعاً أن يكونوا غداً على ظهر السفينة. سنذهب لجلب الفحم والمؤن من بور سودان.
وغاب التونسي.
وأمسك سي مختار بذراع رشيد:
– إني لم آت هنا من أجل الجنة. لقد كان أبوك صديقي...
وساق الشيطان الأشمط رشيداً؛ وأثار فضيحة عند مركز الجمرك. لقد طلب العودة إلى الباخرة؛ وادعى نسيان صندوقه هناك. فعارض القبطان في ذلك؛ وألقى سي مختار محاضرة؛ وهو ماثل أمام القبطان الذي كان يتهيأ للعودة في القارب؛ عند اقتراب الغروب. خلع سي مختار عمامته؛ وانتزع أسنانه العاجية التي كانت تزين فكه السفلي؛ ويداه الاثنتان على جمجمته الملساء:
– رحماك يا رب؛ ثلاثاً! لماذا هذا الظلم؟
كان سي مختار يهتف بالفرنسية؛ بلغة غريبة عنه في الأصل. لم يكن رجال الجمرك يأبهون له؛ بينما كان البحارة يكادون ينفجرون من الضحك. لم يكن صوته عالياً إلى حد الصراخ. كانت كل شخصيته المضحكة تبعد عنه سيماء الجنون؛ إذا أغفلنا جانباً انتزاعه للفك الاصطناعي، وسقوط العمامة، والمظهر الوحشي للشيخ الذي واصل هتافه معيداً القوم إلى الهدوء:
إن دفن الحقائق هو سبب المصائب.
ثم تابع بصوت حاد:
أبي شارلمان
وأمي جان دارك.
وانشرح القبطان أيما انشراح. أتراه دهش لسماع حاج يرجع إلى تاريخ فرنسا؛ أم أنه كان يوثر أن يتخلص

بلباقة من وضع يمكن أن يجر عليه السخرية؟ وسأل سي مختار بينما كان رشيد، البحار المزيف، يقوم بدور الترجمان:

لن تتمكن الباخرة من الإقلاع إلا في ليلة بعد غد. ولن تستطيع قافلة الحج الرسمية أن تغادر جدة قبل ثمان وأربعين ساعة من المعاملات الشكلية. لذلك كانت عودة سي مختار إلى الباخرة تبدو أمراً طبيعياً. إنه يستطيع في هذه الأثناء أن يأخذ صندوقه وأن يلتحق بالقافلة في عوامة «على نفقته الخاصة طبعاً» كما نبهه إلى ذلك القبطان. وعندما بلغوا السلم انفصل رشيد شيئاً فشيئاً عن مجموعة البحارة، الذين كانوا يحيطون بالشيخ الماكر، وانسلّ فوراً إلى غرفة الحمام، حيث لحق به سي مختار بعد لحظات...

– سنتوجه الآن إلى بور سودان.

واستدعي رشيد عند المرض.

وقال سي مختار:

– أني أموت.

واضطروا لاحضار الطبيب.

– سأموت... لقد سرق صندوقي.

– سُرق؟

– لا بد أنه سُرق، أو ألقي به في البحر. لم يبق أمامي إلا الموت.

– وماذا ك ان يحوي الصندوق؟

– مالي، ومال أمي، وصدقات أصدقائي. لم أعد جديراً بزيارة مكة. أعطوني سريراً، ودعوني أموت. إرحموني... أعطوني سريراً...

وبصعوبة بالغة استطاع الطبيب أن يتفوه ببضع كلمات.

كان المهرج العجوز يتخبط، ويتظاهر باليأس، ويشد المرض من كمه، طالباً منه أن يشهد له، ويضع الأيدي الأربع على قلبه، ويدعك ثيابه... وأخيراً... قالها ببرود:

– لم تعد بي رغبة في الذهاب إلى مكة. لن تستطيعوا إرغامي على ذلك. فقد دفعت أجرة الذهاب والإياب.

وفي هذه المرة. لم يعد أي اعتراض يقف في سبيله؛ فإذا هو يحصل على سرير في المستشفى، بالقرب من مخبأ رشيد الذي لم يفهم من كل هذه القصة شيئاً. وعندما التقيا على انفراد ابتدره رشيد بالسؤال:

– عن أي صندوق كنت تتحدث؟

– دعني أتصرف!... هل كانوا يعطونني جواز سفر بدون حج؟ خدعة بخدعة. الأفضل أن يرى المرء بلداناً أخرى...

حتى ذلك اليوم لم يطرح رشيد على نفسه هذا السؤال: ما هي الأسباب الخاصة التي دعت سي مختار لزيارة مكة من جديد؟ هل كان المهرج العجوز يريد أن يغادر مسقط رأسه للمرة الأخيرة، خشية من أن يموت مهزوماً، مهجوراً، عقيماً، في نفس المكان الذي عاش فيه هذه الحقبة الطويلة من الزمن في زهو واعتزاز. ولكنه ما لبث أن أفضى بكل شيء... كل شيء تقريباً...

10

كانت الباخرة خالية. وكانت مشاغل البحارة قد قلّت أثناء غياب المسافرين. وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بور سودان أخذ الرجال يصطادون من على سطح السفينة، ويتجولون. وتراخى النظام. كان المرض غالباً ما يتغيب ليقوم بزيارات لأصدقائه في حجراتهم؛ وفي الهزيع الأخير من الليل استيقظ رشيد على صوت الشقي العجوز؛ وصعد إلى السطح. كان البحر هائجاً، وكانت الرياح، في بادئ الأمر تحول دون اقتراب بعضهما من بعض... ثم اكتشفا كرسيين في منأى عن الريح، وجلس سي مختار مواجهاً متراس السفينة، وتناول بعض التبغ من علبة دخانه، وراح يتمتم ببعض الأدعية. وقبع رشيد إلى يساره، يصغي إليه وهو ينظر إلى البحر. كان على وشك أن يغفو عندما مال سي مختار إليه. وهبت عاصفة من تلك العواصف النادرة، المفاجئة، فحلت عمامته: «... نعم، من نفس القبيلة؛ نحن أقرباء، ولكن ليس بالمعنى الذي يفهمه الفرنسيون من القرابة. لقد قدمت قبيلتنا تحت قيادة «قَبْلوت»، من الشرق الأوسط، على ما يذكر القوم، ومرت باسبانيا، ثم أقامت في مراكش. ولقد أوضح لي بعضهم بأن «قبلوت» ليس إلا اسماً تركياً، ويعني «الحبل المقطوع». خذ كلمة «قبل» والفظها بالعربية تجد أمامك «حبل»، لم يتغير فيها إلا القاف الذي حلّ محل الحاء الأصلية. أضف إلى ذلك تحريف المقطع الأخير الذي يفرق اللفظ التركي، عن اللفظ العربي، إذا سلمنا أن الإسم تركي بالفعل...

لم يبق أي أثر «لقبلوت». وكل ما نعلمه أنه كان رئيساً لقبيلتنا في فترة سحيقة، يصعب تحديدها خلال القرون الثلاثة عشر التي مرت منذ وفاة الرسول. كل ما أعرفه تناهى إليّ من أبي؛ الذي تناهى إليه من أبيه، وهكذا دواليك...

هناك احتمال كبير أن يكون «قبلوت» قد عاش في الجزائر، في الشطر الأخير من حياته على الأقل، لأنه مات بعد أن جاوز المائة. أكان قبلوت هذا هو الذي أسس الدوار، أم كان أحد أحفاده الذين سموا باسمه؟ من يدري؟ إن أحد مشاهير العلماء الذي يعرفون تاريخ قبائلنا بالتفصيل، يرى أن قبلوت قد جاء على الأغلب من اسبانيا مع أبناء القمر، واستقرّ بادئ الأمر في مراكش، ثم أنتقل إلى الجزائر. ولكن بعض الخصال المتوارثة في ذرية قبلوت يمكن أن تقود الباحث في طريق معاكس: فمن المعلوم أن عدة أجيال من القبلوتيين قد ألفوا أن يمارسوا حتى أيامنا هذه أعمالاً معينة... كان جلدهم طلبة علم، أو طلاباً متجولين، موسيقيين وشعراء، أباً عن جد، لا يملكون إلا قليلاً من الثروة، ولكنهم كانوا يبنون مساجدهم، ويقيمون مزاراتهم، أنّى حلّوا، وأحياناً مدارسهم حين يكون أتباعهم كثيري العدد. وهذا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن قبلوت الأول لم يكن قائداً، ولا رجلاً من أهل المقامات، بل كان صاحب مذهب. وفن. وفي هذه الحالة نستخلص أنه لم يكن زعيم قبيلة قوياً، مرهوب الجانب. بل رجلاً منفياً، ذا ميول وأفكار خاصة، استقر بمحض المصادفة في الجزائر، ثم انتخبه أهل المنطقة أو تبنّوه بشكل ما؛ ودخلوا شيئاً فشيئاً في عداد أسرته؛ ثم انتهوا بأن جعلوا منه كبير الجماعة.

ذاك محتمل جداً؛ لو لم تكن هناك حوادث أخرى حدثت في أعقاب الاحتلال الفرنسي؛ وأشارت إلى وجود «قبلوت» ذي بأس وسلطان؛ كان زعيماً لقبيلة من البدو الرحّل؛ أو رئيساً لعشيرة مسلحة عاشت منذ العصور الوسطى في مقاطعة قسنطينة، على جبل «الندحور»؛ الذي يشرف على المنطقة الشرقية من مدينة «غلمة». إن موقع «الندحور» نفسه ذو دلالة كبيرة. إنه موقع منعزل يمكن ساكنيه من الاحتفاظ بمنطقة ما تزال محط أنظار الفاتحين منذ أمد بعيد.

كان الرومان يضعون ثلةً من الجنود للحراسة؛ على مقربة من المكان؛ بالقرب من مقالع «ميلسيمو». كما كان لهم موقعان حصينان آخران؛ هما حصن «هيبون»، على شاطئ قرطاجة، وحصن «سيرتا»، مركز إقليم «نوميديا» الذي كان يضم آنذاك أفريقيا الشمالية بأسرها.

واتبع الفرنسيون بعد حصار قسنطينة أساليب الرومان الحربية؛ وطبقوها خطوةً خطوة. فما إن تمركز جنودهم بين جدران سيرتا، وهيبون، القديمتين؛ حتى وضعوا نصب أعينهم منطقة «ميلسيمو»؛ وأرسلوا مفارز من الجند وبعثات للاستطلاع في انتظار اليوم الذي يستطيعون فيه أن يثبتوا أقدامهم هناك. كان سكان الندحو ما يزالون متمردين، غير خاضعين لأحد. لم يكونوا يهاجمون، ولكنهم كانوا يتوغلون في أعماق الغابات؛ وهم يتجاهلون الفاتحين الجدد... ومرّت الأيام... واستعصى على الفرنسيين أن يمدوا سلطانهم إلى هناك. وحينئذ... نزلت بالقبيلة الضربة القاصمة.

11

جرى كل ذلك في غضون عدة أيام، بعد أن اكتُشفت جثتا رجل وامرأة في جامع القبلوت، طعينتين بضربات مدية. كانت الجثتان ترقدان مصبوغتين بالدماء، في حزمة من الثياب. أما هوية القتيلين فما تزال محاطة بالغموض، حتى يومنا هذا. فبينما يرى بعضهم أن الرجل كان ضابطاً من ضباط الحملة الفرنسية، يرى الآخرون أنه لم يكن غير متعهد أوروبي يشرف على صيانة الطرق، فوجئ في عربة مع صاحبته... وأُسْلِمَ الندحور للنار والدم، وعُيِّن قضاة عسكريون؛ وفي لمحة عين كان رجال القبيلة الستة قد قطعت رؤوسهم، الواحد تلْوَ الآخر، في نفس اليوم... وقضى قبلوت الشيخ في ذلك اليوم (ليس قبلوت الأب، الأول، ولكنه أحد أحفاده)، وبقيت القبيلة من دون زعيم بعد مقتل الستة الكبار؛ ولكن كان لقبلوت ذرية كبيرة جداً، فنشأ جيل جديدٌ من الشباب، عاشوا في الرعب، والقلق، ولم يلبثوا أن غادروا الندحور سراً، ليستقروا – مجهولي الهوية – في أماكن أخرى من الولاية.

ولملمت القبيلة المصطلحة أواصرها، وشجعت زواج القربى، واتخذت أسماء أخرى لتتخلص من الثأر، تاركةً قبضةً من الشيوخ، والأرامل، والأيتام، في أرض الأجداد التي دُنست. وكان على هذه البقية أن تحافظ على التراث، على ذكرى القبيلة الراحلة. ويتناقلون أن إحدى الأرامل اللواتي قُدِّمْنَ على محرقة الندحور بقيت وحدها بين الأطلال، توالي تعاليم قبلوت... وخلال ذلك، لم يستطع القائمون بالحملة الانتقامية أن ينجحوا في إقناع المحققين، وتبرير ما قاموا به. فمجرد كون إحدى الجثتين جثة امرأة يضعف التهمة التي ترمي أبناء قبلوت بالعداء، وتحملهم تبعة الجريمة. وربما كانت القضية قضية غرامية استُغلت لضرب مقاومة القبيلة وسلطانها؛ فليس أسهل من أن يُنْقَلَ القتيلان إلى الجامع، ويكون ذلك ضرباً من الإخراج المسرحي، قام به خصم القتيل الضابط أو متعهد صيانة الطرق. إن رمز الدم المسفوح في الجامع يبدو شديد الاقناع، شديد الإثارة للفاتحين، يستخدمونه في تسخير القبائل الموالية لهم، لتحقيق أغراضهم، تلك القبائل التي تطمع أن تقلل من شأن هؤلاء المعلمين في أعين المحتل، هؤلاء المعلمين الذين يطلبون العلم مدى الحياة، الفقراء، الخطرين في وقت معاً...

«القتل في بيت العبادة» يمكن أن يكون ضرباً من الألاعيب المسرحية، المتقنة الإخراج... هل خطر ذلك للمحققين في تلك الفترة؟ ربما كانت السرعة العمياء التي تمت بها المذبحة، واشتعال الحقد الذي يهدد بالانفجار ضدهم قد أخافهم إلى حد ما. ما من شك في أن أحد الخبراء في قضايا أهل البلاد انحنى على سجل القضية يدرسه، ثم امتطى جواده، ومضى في اتجاه الشرق، يسأل الذين بقوا على قيد الحياة، ثم يبقى في الندحور طوال فترة تقديم الدعوى التي انتهت بإصدار قرار في محكمة ثكنة (غلمة)، وبسقوط الرؤوس الست، الواحد تلو الآخر، بينما كانت قبيلتنا التي حرمت من رؤسائها تنهار... ووصلت برقية من العاصمة، بعد عدة أيام، تشمل بالعفو جثث الثكنة الست. وكان الانتقام مستمراً بصورة مستترة حين وصلت رسائل الأسف والتعازي التي لم يعد هناك من يبلغها أو يقبلها؛ فأبناء المقتولين الستة لم يكونوا قد غادروا المهد، حين أعطوا ألقاب قضاة وقواد. وبهذه الطريقة منحوا أسماء الوظائف الصورية التي سيشغلونها في المستقبل. وهكذا كان أسوأ الحسابات ينتصر حتى في محاولات التكفير عن الخطأ. فإن إسم قبلوت قد أطفئ إلى الأبد، وبقي في القبيلة سراً محزناً، دلالة على التعاضد، ولم الشعث، في أيام المحن.

بلى، بقي الجامع أطلالاً دارسة، يرتفع إلى جانبه علم المزار الأخضر، المصنوع من أسمال الأرامل والشيوخ.

لقد هرب الرجال، وأبعد الأيتام الذين تنتقل إليهم الثروة عن طريق الإرث. وامتد دمار القبيلة إلى السجلات المدنية، السجلات الأربعة التي أحصي عليها الباقون على قيد الحياة، ثم وزعوا فرقاً؛ لقد أتمت السلطات عملها التخريبي بأن وزعت أبناء قبلوت إلى أربعة فروع، «لتسهيل المعاملات» فرجال السجل الأول مُنحوا بعض الأراضي التي لم تلبث أن صودرت منهم، وطردوا منها إلى أقاصي الولاية. وإلى هذا الفرع ينتمي أبوك، وسيدي أحمد...

ورجال السجل الثاني منحوا وظائف إدارية، وانتشروا بذلك في المراكز المختلفة. وإلى هذا الفرع ينتمي أبي...

أما رجال الفرع الثالث فقد لاقوا نفس المصير تقريباً، رغم أنهم مسجلون في سجل خاص، ولكنهم ابتعدوا أكثر من سابقيهم، لاكثارهم من التزاوج مع أسر أخرى لم تمر بالتجربة...

وأما رجال الفرع الرابع فقد أقاموا يحرسون الجامع



المهـدم، والمزار؛ والأرض الصـغيرة، وعَـلَـم الأجـداد. ويشـاع أن هـنـاك فـكـرة لـتـكـوين رابـطـة مـنـهـم، تـحـمل مسؤولية الحفاظ على هذه المقدسات إذا ما ولد في يوم من الأيام مشروع للثأر...».

12

وفي ذلك اليوم، في زنزانة الهارب من الجندية، كان يخيل لرشيد أن اعترافات سي مختار المؤثرة ما زالت ترن في أذنيه، وهو على ظهر السفينة، تلك الاعترافات المشبوبة التي كانت تختلط بصخب البحر الأحمر أمام بور سودان... «يجب أن تفكر في مصير هذا الوطن الذي أتينا منه. إنه ليس مقاطعة فرنسية، وليس على رأسه باي، ولا سلطان. ربما تفكر في الجزائر التي ما برحت عرضة للغزوات في التاريخ، وفي ماضيها المستغلق، لأنا لسنا أمة. لم نصبح أمة بعد. عليك أن تعرف ذلك. نحن لسنا الا قبائل منكوبة، ليس عودة إلى الوراء أن نمجد قبيلتنا. إنها الرباط الوحيد الذي بقي لنا ليجمعنا، ويلم شعثنا، حتى ولو كنا نأمل في أحسن من ذلك... لم أكن أستطيع أن أتحدث اليك هناك، في موطن الكارثة... هنا، بين مصر والجزيرة العربية مر آباء قبلوت، واهتزوا مثلنا فوق هذه الأمواج، غداة هزيمة من الهزائم، كانوا يخسرون ملكاً عريضاً. أما نحن فلا نخسر الا قبيلة. ولا بد لي أن أقول لك: لقد كانت لي ابنة، من امرأة فرنسية وكان أول ما قمت به الانفصال عن المرأة في مارسيليا، ثم اختفت الابنة، (وكادت الصورة التي أبرزها سي مختار تذهب مع الريح؛ ولم تكن الا صورة المجهولة التي رأيتها في المستشفى)... إن الذين أسلمتها لرعايتهم، أيام صداقتي مع أبيك، والذين كانوا أقرباءنا، كانوا يبعدونها دائماً عني، وقد زوجتها أمها التي تبنتها دون أن تستشيرني، ولم أستطع شيئاً أمام ذلك. كانت تبعة ذلك كله تقع عليّ وحدي. ولكني أعرف جدياً أن نجمة قد تزوجت خلافاً لرغبتها، أعرف ذلك الآن، بعد أن اهتدت إليّ، ووجدتني من جديد، ثم راحت تكتب إليّ، وتزورني، وهكذا أتيحت لك رؤيتها في قسنطينة حيث كان زوجها يسمح لها بمرافقته من حين لآخر. كنت أعرف الشاب الذي تقدم لخطبتها منذ أمد بعيد لقد رأيته يولد. كان أبوه من جيلي، جيل أبيك، وجيل سيدي أحمد. لم أستطع قط أن أحب هذا الشاب، رغم وجود بعض الأسباب التي تدفعني إلى حبه... بعض الأسباب...

كنت في الواقع الوصي على هذا الذي تزوج نجمة دون أن يخبرني بذلك. أتراه كان يعرف؟ وها أنذا الآن أعيش العار مرتين! ها أنا أخان في دمي مرتين... بك أنت يا رشيد، بك أنت أفكر...

ولكنك لن تتزوجها أبداً. لقد قررت أن أختطفها بنفسي، من دون معونتك، وإن كنت أحبك أيضاً كأحد أبنائي... سنعيش جميعاً في الندحور... أنت وهي، ولديَّ الاثنين، وأنا... أنا الشجرة الهرمة التي لم تعد تقوى على تغذية أحد، ولكنها ستمد فوقكما ظلها... وسيستعيد دم قبلوت كل حرارته وكثافته... وستحمل كل هزائمنا في سر القبيلة – كما لو كانت نبتة في بيت من الزجاج – ستحمل ثمارها قبل الأوان.

ولكنك لن تتزوجها أبداً! إذا كان علينا أن ننطفئ رغم كل شيء، فلننطفئ محاطين بالمتاريس ليلاً، في أعماق الأطلال المفتوحة من جديد...

ولكن أعرف ذلك، لن تتزوجها مطلقاً...».

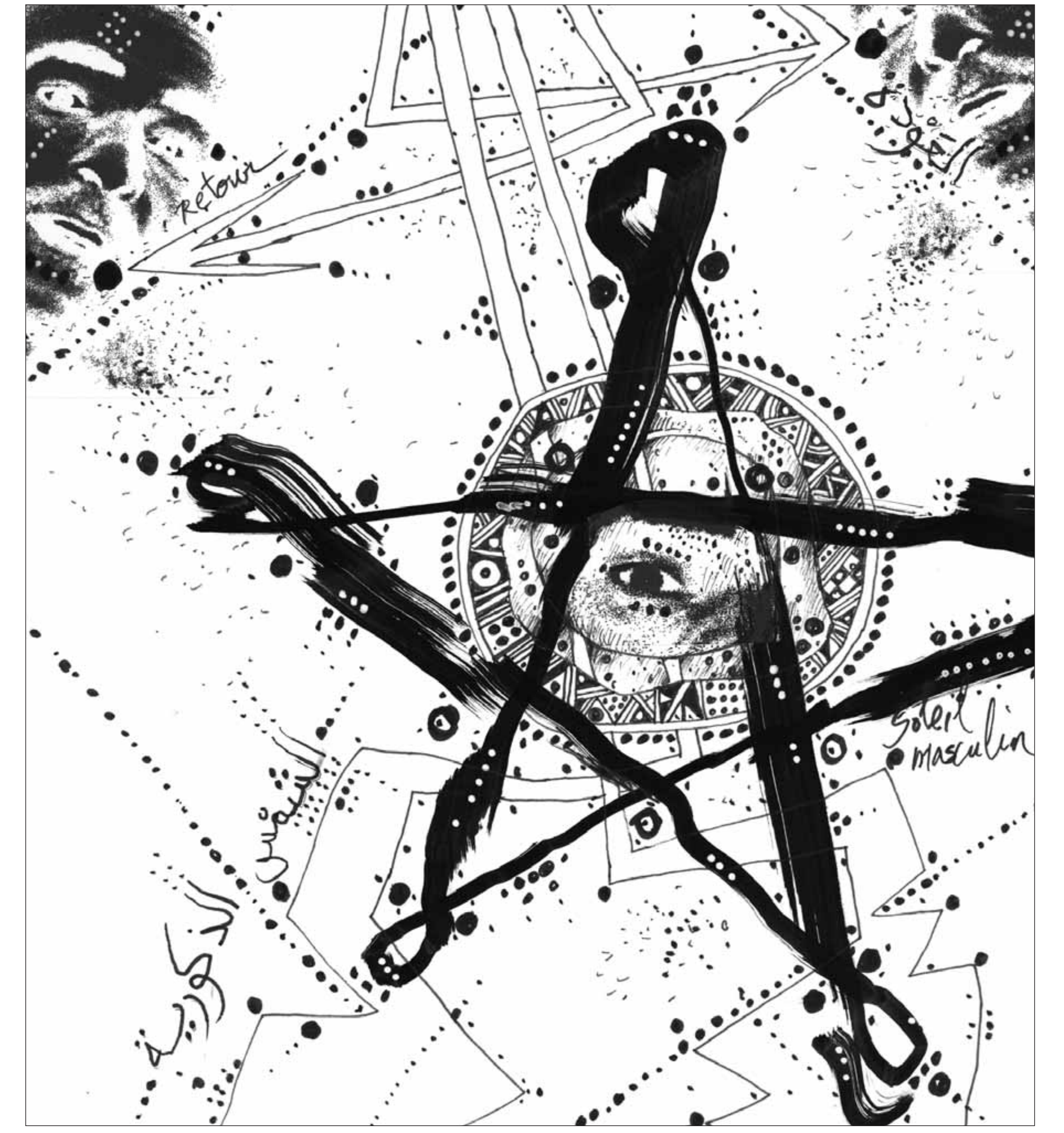
الفصل الخامس

1

وظلت القبيلة دون رئيس؛ وماتت فيها امرأتان اسماهما زهرة، ووردة، الأولى كانت مهجورة أو مطلقة، والثانية أرملة كانت تعيش مع ابنتيها الاثنتين، أختَيْ مصطفى، عذراوَي الندحور، اللتين شاهدتا النسر المحاصَر يرميهما بقذائفه من الجو. كانتا تتسلقان الجبل بإصرار، في اتجاه الوكر المفتوح للرياح. كان النسر ما يفتأ يجر نفسه كل مرة خارج وكره، ويأخذ فجأة في الطيران، بعد جهود فاجعة، جهود جدٍّ مطارَد، كأنه يريد أن يكذّب موته، أمام القبيلة المنكوبة، التي وجدته هنا، هو النسر ذا المئة عام، المهجور منذ أبد بعيد من شريكته وأولاده، النسر الذي تعرض لفضول العذراوين النَّهِم. كان يحوّم على البعد فوق الشقيقتين كقائد أصابه القَرَف، فإذا هو يهرب من ساحة نصر في متناول يده. ثم أخذت صخور مباغتة، تتساقط من وكر الطائر قذائف من دون جواب. كان سقوطها يحمل العزاء للقبيلة عن هزيمتها، كفأل حسن من تحمله قوة علوية مجهولة من الأجداد. واختفت الأخت الصغرى في أمسية من أمسيات الصيف؛ ولم تقل الكبرى شيئاً لأحد، ولكن جثتها وُجدت في اليوم التالي في سفح الجبل، تحت قدم القمة، وفي زنارها مدية مدسوسة. ودون أية كلمة، دفنت القبيلة العذراء الوحيدة، الفتاة المتوحشة، ذاتَ الخمسة عشر ربيعاً التي فقدت شقيقتها. لقد خيل إليها أن النسر اختطفها، فمضت تحمل مدية لتنقض على الأرمل البعيد المنال، ولكنها سقطت صريعة دون أن تصل إليه. هل كانت قد عقدت العزمَ على ذبح الطائر العجوز؟ هل كانت تتنبأ بمصادفات أخرى، أم أنها كانت قد قررت أن تدير السلاح إلى صدرها فيما إذا لم تعثر على الطفلة؟ ولكن الطفلة ظلت مجهولة المصير، لم يُعثر عليها قط؛ وتوارى النسر نفسه فلم يظهر للعيان. ووضعت عجائز القبيلة الثرثارات أيديهن على اللغز: إذا كان النسر قد مضى مع فريسته فربما كان ذلك دليلاً على أن اللعنة التي حلت بالقبيلة قد أخذت تبتعد، وأن النحس قد آذن بالزوال، بفضل العذراوين اللتين قُدِّمتا قرباناً لتطمئن روح قبلوت في رقدتها...

2

وظهر قبلوت القديم الأسطوري في الحُلم لرشيد، في زنزانة الهارب من الجندية، وكان رشيد مشغول الذهن في أشياء بعيدة عن دعواه. إن المحكمة التي يخشاها لم تكن محكمة الله، ولا هي محكمة الفرنسيين... هناك شيء آخر يخيفه... لقد تجلى له قبلوت الشيخ الأسطوري، ذات ليلة في الزنزانة، بشاربين كثيفين، وعينَيْ نمر، يحمل في يده هراوة. ولم تلبث القبيلة أن احتشدت كلها شيئاً فشيئاً داخل الزنزانة. كانوا مشدودين بعضهم إلى بعض، يتزاحمون بالمناكب، ولكن أياً منهم لم يكن ليجرؤ على الدنوّ من قبلوت، قبلوت الجد، الذي يحمل وجه الوحش الضاري، ذي العينين السوداوين الماكرتين. كان يدير نظراته الجبارة في قبيلته، والهراوة في قبضة يده. كانت نظرته وحدها تقص بسخرية مريرة قصة كل واحد من هؤلاء الأبناء. وكان يبدو للأحفاد أنه هو وحده قد عاش حياتهم بكل اتساعها؛ وهو وحده الذي شق الطريق إلى الندحور، حيث حلت به الهزيمة. ولم يكن موته من هذه الهزيمة، وهو على الأرض التي اجتاز من أجلها الصحارى، بأقل من الموت الذي حل به من قبل وهو مشرد، يجتاز صحارى مصر، وطرابلس الغرب، كما فعل ذلك من بعده حفيده رشيد الذي راح يقرأ في هذه اللحظات تاريخه الخاص في عين قبلوت، ذات الصفرة المشوبة بالسواد، في زنزانة هارب من الجندية، في ليلة مزدوجة، هي ليلة الظلام والسجن معاً...



3

كنت مع العم مختار وابنته، أعزف لهما لحناً ابتدعته. كان سي مختار مريضاً، ينير الغرفة التي وجدنا فيها نحن الثلاثة، منذ أيام وأيام بواسطة مصباح من الغاز، كان يشعله ثم يطفئه، بين اللحظة والأخرى، ليبحث عن علبة دخانه الضائعة باستمرار في غمرة اللذة، لذة الحشيش القاتل... كنا نؤلف، في الحقيقة، مجموعة غير جديرة بالنور الدائم، عاشقان خجولان، في ظل أحد الآباء. كان مصباح سي مختار العديم الزجاجة يجدد الظلمات، ويؤلف مع عودي مركز جاذبية لا تقاوَم، إذا ما أغفلنا وجود نجمة بالطبع. كان رأسها مدفوناً بين رُكبتَيْ رفيقي الشيخ، وفي نعاسها الطفولي كانت تُبْدي رقة رسغ قدمها تحت خلخال من الفضة؛ أما باطن ساقها المكشوفة فقد أصبح في نصف العتمة هذه خطراً لذيذاً يهدد بتشويش أنغامي الموسيقية. ولا بد أن أعترف أننا كنا نحن الثلاثة في لحظات الراحة التي ما برحنا نحلم بها منذ سنوات من النفي المستمر، سنوات من الفراق... من الجهد المضني... من البطالة والاستهتار. لقد عثرنا أخيراً على الهكتارات اليسيرة التي كانت كل ما بقي للقبيلة من الأرض، وعلى الكوخ الأخير. (كان أقرباؤنا يعيشون دائماً تحت الخيمة وقد عزلونا هنا بشيء من الازدراء، نحن الذين استسلم آباؤنا لخدعة الفرنسيين، وابتعدوا عن جبل التوائم، ليعيشوا في مدن الفاتحين). ومع ذلك، فقد استقبلونا من جديد، واتصلت دماء القربى شيئاً فشيئاً. كنا نستطيع أن نعيش على الفاكهة والقهوة في حرارة الصيف اللاهبة، وطالما أكلنا القنافذ في انتظار فترة حضانة الحَجَل. أما نجمة التي بهر جمالها قريباتنا إلى جانب سمات الأسرة التي تتجلى في محياها، فقد كانت تمتطي في تلك الأثناء آخر فرس في الاسطبل، ولا يبدو عليها أي استياء من مصيرها، رغم أنها أبعدت عن أمها التي تبنتها، وزوجها الذي زوجتها به تلك الأم.

أن أسرة نجمة كانت أسرتي تقريباً؛ ولم يثر الاختطاف أية فضيحة... كان سي مختار يبحث عن التام – التام، بينما كانت نجمة تبدو على وشك النوم. كنت أضاعف اندفاعي في العزف. كانت تأتيني نغمات بليدة، قاسية، أشبه بالدموع التي كانت تغلي لرؤية الحبيبة الصعبة المنال، وأبيها الذي أخذ جنونه يبدو لي أشد وضوحاً يوماً بعد يوم: كان يصر على طلب التام؟ التام بحركات ملحة، بينما كنت أعزف على عودي، وأنا أقترب من نجمة مستغرقاً في المتعة... وفي اللحظة التي كنت أتهيأ فيها لإضاعة رشدي في غمرة تلك الضوضاء التي كان الشيخ اللجوج يضطرني أن أزيد منها في كل لحظة أمام تساؤلاته الحمقاء... في تلك اللحظة راح النور يتدفق من النافذة التي تواجهني.

وأغمضت عيني... لم يكن ذلك نور المصباح، ولكنه برق العاصفة. وأيقظ السيل نجمة من حلمها، ثم بدت الشمس في رأد الضحى، واستسلم سي مختار للنوم.

وجدت نفسي في وسط الأدغال بالقرب من نجمة. لقد أدهشتها تلك الجرأة... ولكني لم أكن أستطيع أن أقول لها أن ذلك يبدو لي خيانة لسي مختار... لقد رجتني أن أنقطع عن العزف في حضورها، لأن ذلك يذكرها بزوجها... ثم مضت راكضة، وهيأت تحت شجرة تين المرجل النحاسي الكبير الذي كان يستعمل للاستحمام والغسيل، وملأته بالماء، ثم تركته يسخن قليلاً تحت الشمس. ومن البقعة الخالية التي تركتني نجمة أجلس فيها، كنت أرى شجرة التين تتضخم بالحرارة، وتطير فوق أوراقها، وأغصانها، زنابير ضخمة في نشوة عارمة. ورغم أني لم أعد الى اشعال غليوني، فقد رحت أتساءل: كم من الأموال قبلي بزمن طويل اغتسلوا في هذا المرجل الموروث أباً عن جد! وخيل إليّ (وكانت تينتان قد نبتتا على جذع الشجرة المحدودب)، خيل إليّ أن زنجياً قد اختبأ تحت شجرة تين أخرى (كان يتأمل نجمة التي تعبث في المرجل). كان الوقت قد فات لتأخذني الغيرة، بيد أن الوقت لم يكن قد حان لأشتبك في صراع مع الزنجي الذي قد يتبين لي أنه ليس منافساً، حتى ولا ذوّاقةً للجمال، قادراً على تقدير قيمة هذا المشهد؛ ولعله في المكان الذي يقبع فيه يرى أطراف المرجل أكثر مما يرى المرأة العارية وعبثها في الماء، رغم أن شجرة التين التي تخفي الزنجي كانت موجودة في مكان أكثر ارتفاعاً من المكان الذي يكان يخفي عني، أنا، جسد الحبيبة؛ بحيث أن المسلك الوحيد الذي كان ممكناً لمن هو في وضعي هو الانقطاع عن التفكير بالزنجي، والتمني بأن لا يرى نجمة، وأن لا تقوم هي بأية حركة، وأن لا تخرج من المرجل قبل أن يغادر الزنجي شجرته، أو أن يستسلم تحتها للنوم؛ لأن نجمة إذا شاهدت الزنجي... فإنها إما أن تصرخ من الذعر، واضطر حينئذ للاشتباك مع رجل كل ذنبه أنه استفاد من ظل شجرة تين... أو أنها ستحاول ؟ إذا ما لاحظت العبد ؟ أن تلفت نظري إليه بصمت، وتبقى في مرجلها، وتضاعف من دلالها، (أليس ذلك ما يوحي به شيطان المرأة في ظروف مماثلة؟) وحينئذ، لن يكون أمامي إلا أن أضطر إلى قتل الزنجي اتقاءً لأذاه، أو أن أقتله وأنتحر في نفس الوقت الذي كدت أقطف فيه ثمرة الاختطاف الذي مكثت أهيئه، وأعدّ له منذ أمد بعيد...

ولم تلبث نجمة أن تركت الحوض!... بدت في كل روعتها، وقد وضعت يدها في فتنة على موضع الجنس، في خَفَر وحياء بالغين حالا بيني وبين أن أثب على المتطفل الدخيل، الذي لا بد أن مخيلته كانت تتجاوز الآن كل الحدود... ولكن أنّى لي الانتقام من منافس وهمي، وأنا أرى نفسي أكثر اندفاعاً في الخيال من الزنجي؟ أنا الذي كنت أتابع المشهد من زواياه الثلاث، بينما لم تكن نجمة، ولا الزنجي يشعر الواحد منهما بوجود الآخر على الأرجح، إلا إذا نبهتهما أنا بخطيئة ما أرتكبها...

كنت أتأمل إبطيْ نجمة اللذين كانا طوال الصيف بقعة من السواد المتلألئ. يا لسر المرأة المتكبر يكشف عن خطره للعيان! ونهدي نجمة في اندفاعهما الملتهب كانا تمرد جسد تشحذه شمس الذكورة... نهداها اللذان لم يكن يخفيهما شيء، يدينان بكل روعتهما لحركات الذراعين الحيية. كانت الحركات تكشف عن السر المستغلق تحت الكتف، عن تلك البقعة النادرة من العشب الملتهب، الذي تكفي رؤيته لتثير الاضطراب، والذي تضم رائحته العلوية كل الرحيق السحري، كل السر، كل نجمة لكل من استنشقها، لكل من فتحت ذراعيها له. كنت أعلم أن الزنجي سيحس الحرارة تسري في دمه لهذا المنظر، ولكن ما كان يهمني قبل كل شيء ألا تلاحظ المرأة شيئاً. كانت البراءة، في الحقيقة تشع من وجهها؛ أما الزنجي فكان قد انبطح أكثر فأكثر تحت شجرة التين، وما زلت أعتقد أني كنت وحدي الذي أعرف مخبأه...

4

ما أجمل ذلك اليوم! ما أروعها قطعة من السماء! وتعود إليّ ذكريات الطفولة، طفولتي الملأى بالمخاطرات؛ حقاً لقد كنت حراً. كنت سعيداً في أحضان الرومل؛ طفولة حردون على ضفاف نهر فاقد الوعي. كنت في الساعات اللاهبة أغفو تحت شجرات الأرز وكأن النوم يطرد عني الكآبة. كنت أستيقظ مترعاً بالحرارة. كان ذلك شبيهاً بهذه المتعة وأنا تحت شجرة التين، أرقب نجمة وهي تخرج من حمامها، بعيدة، دون أن تختفي، كنجم لا يمكن أن يقترب منه اللصوص، وهو في هذا الضوء الساطع.

كنت أود أن أترجم للمخلوقة التي كان الزنجي يفترسها بعينيه هذه المناجاة المهووسة، وأنا ما أزال مأخوذاً بأغاني طفولتي المحطمة: «لماذا لم تبقي في الماء؟ إن أجساد النساء المشتهيات كجثث الأفاعي، والعطور الطيارة، لم تخلق لتفنى، وتفسد، وتتبخر في جونا، جونا المصنوع من زجاجات، وأوعية، وأحواض استحمام. هناك يجب أن تدوم الزهور، وتتلألأ الحراشف، وتتفتح النساء، بعيداً عن الهواء والزمان، كقارة غمرتها المياه، كبقايا دفينة ما ينفك غورها يسبر، لعل كنزاً أخيراً يكتشف في أعماقها فيما بعد ما دامت الحياة مستمرة. ومن الذي لم يغلق الأبواب دون عشيقته؟ من الذي لم يحلم بالمرأة القادرة على انتظاره في حوض استحمام نموذجي، دون شعور، ودون زينة، ليضمها دون أن يخشى ذبولها، بعد القلق والمنفى الطويل؟

استحمي يا نجمة! إني أعدك بألا أستسلم للحزن عندما يذوب سحرك، فكل لمحة من لمحات جمالك، كل صفة من صفاتك تجعل هذا الماء أثمن مئة مرة في عيني... ليست الأهواء الخاصة هي التي تجعلني أبدي كل هذا الحب لمرْجل. إني أحب بصورة عمياء. أحب شيئاً بلا ذاكرة، تصطرع فيه آخر الأشباح التي أحببتها. ليتك تخرجين وقد اغتسلت من الحبر الرمادي الذي طبعته على بشرتك ظلماً وعدواناً طبيعتي كحردون. لم يحدث أن تعرض عاشق لكل تلك المضايقة، وذلك الحصار حتى أصبح يرغب في ذوبان سحرك... أأكون هذا العاشق يا ترى؟ إني أخجل حين أعترف بأن أحر أهوائي لا تستطيع الاستمرار في الحياة بعيداً عن هذا المرْجل الذي ينقلب في عيني أنبوبة اختبار ضخمة، تخفي جدرانها الانسانة الوحيدة التي يفرض على قدري أن أدنو منها وأحيط بها؛ أن أدافع عنها وأحميها، بدلاً من أن أتكل في حمايتها على جدران مرجل عميق. ولكن أليست نجمة بريئة؟ أيجب علي أن أحملها على الغواية؟ أن أحدثها عن هذا الزنجي، وأن أنصحها بأن تستحم في غرفتنا من الآن فصاعداً، ولو أدى ذلك إلى طرد أبيها في ساعة قيلولته المقدسة، وألا تعرض جمالها بعد الآن، جمالها الذي أصبح لي وحدي، أمام عيني متوحش، أو حتى أمام طفل... لأن رؤية كنز خطرة دائماً ليس فقط للمالك الذي بات يفضل ألا يكون قد رآه مطلقاً، ولكن بالنسبة للطامع، والمتطفل اللذين لن يذوقا طعم الراحة... وسرعان ما يفقدان ثمرة طمعهما وفضولهما، كل ذلك لأنهما لا يستطيعان أبداً أن يخفيا كنزهما عن نظراتهما، ونظرات الآخرين!

بلى، يا نجمة! اختبئي في ثوبك، في مرْجَلك، أو في غرفتك، وتذرعي بالصبر... انتظري حتى أهزم آخر منافسي، وأصبح بعيداً عن الأذى، وتنحل أمامنا كل الشدائد. وحتى في ذلك الحين، سأفكر في الأمر مرتين قبل أن أهرب وإياك. لن يفتر زوجك ولا عشاقك، حتى ولا أبوك، عن محاولة استعادتك أبداً ولو كانوا قد أسلموك إلى حراستي ولذا أراني أؤثر أن تضمني وإياكِ غرفةٌ سوداء بدلاً من أن تتنزهي في الشمس، وألاّ نخرج من مخبأنا إلا ووراءنا قطيع من الأطفال، لأكون على يقين من أن سأجدك في كل حين. إن مجموعة من الأطفال الأشداء الأصحاء هي وحدها القادرة على أن تضمن الفضيلة عند الأم...».

ولكني لم أكن أستطيع أن أتحدث بشيء من ذلك أمام نجمة. كنت أتمالك نفسي، وأكتفي بترداد هذه الخواطر بصوت منخفض، هامساً بيني وبين نفسي بقليل من الكلمات القادرة على أن تطلق هذه الخواطر من عقالها... أما نجمة فقد استلقت بجانبي، وهي مبتلة بالماء، وكان النوم قد أخذ يَرينُ على جسدها المتراخي.

لم أكن أدري ماذا أفعل باضطرابي المتزايد بينما كان الزنجي يبدو وكأنه ينام هو أيضاً، بعد أن هدأت ثائرته. وكانت التينتان البنيتان المنفتحتان لأولى دوريات النمل تجعلانني أرسل تنهداتي بمرارة ضد وجودي في بستان مزدحم بالثمار، أحس إحساساً غامضاً أني المسؤول عن حراسته. لقد كنت هدف الأنظار من كل جانب لامتلاكي الغامض لنجمة، أنا الذي كنت أريد أن أعينها بكل بساطة على البقاء وحدها بانتظار نتيجة احتدام الصراع الذي أعرف أنه قد ابتدأ منذ وقت طويل، في غيابي، في الوقت الذي لم يكن سي مختار قد باح لي بشيء عن ابنته، وعن مآسي قبيلتنا.

لقد حضرت فيما مضى جزءاً من الصراع، حضرت اقصاء مراد عن الساحة دون أن أضمن هزيمة العشيقين الآخرين، لأني لم أكن أعرف أماكن نفيهما. وبقي في الحساب أم نجمة بالتبني، أمها التي تبحث عنها حتماً، أضف إلى ذلك كامل، الزوج الاسمي لنجمة، ضحية الاختطاف الأولى الذي نفذه سي مختار بمساعدتي. والآن يأتي هذا الزنجي الذي يبدو خارجاً عن الموضوع، ولكنه قد يشتعل حباً لنجمة أيضاً، ويُعد العدة لعملية خطف جديد، في قلب أرضنا الأخيرة، أثناء غياب البقية الباقية من الرجال، وبقائي أنا وسي مختار لندافع عن شرف القبيلة... كنتُ أرى الزنجي في الحقيقة تحت شجرة التين، بوجهه المغضّن، غارقاً في سُبات حيوان هرم. لقد ظل ساكناً كأن شيئاً لم يكن، وكدت أعزو مخاوفي إلى غليون الحشيش المطفأ مرة أخرى، عندما استفاقت نجمة وهي ما تزال مبتلة، ونهضت خفيفة، ومضت وأنا أتابعها بارتياح نحو شجرة التين التي كان المرجل تحتها، ورفعته دون أن تطلب مساعدتي، وقلبته



باتجه الشجرة الأخرى، ثم عادت إلى أبيها مع المرجل الفارغ، وتركتني في حيرتي الشديدة: أأوقظ الزنجي الآن قبل أن يصل الماء إليه (الماء الذي اغتسلت فيه المرأة الآسرة)؟ ألن أكون حينئذ في وضع عاشق يقول لمتطفل: «لقد اغتسلت، فهل يمكنك الابتعاد. إن هذا الماء يحتويها كلها، دماً وعطراً، ولن أحتمل أن يمسك هذا الماء»! حتى الزنجي، حتى ابن أفريقيا الحساسة بشؤون السحر؛ لا يستطيع أن يرضى عن هذه الكلمات كل الرضا، سيتعلل بها ليشم الغزالة، ولو هلك معي... ومن جهة أخرى هبني تركت الزنجي في غفوته، فإني بذلك أحتطف له بالماء المحظور الذي كان يتدفق سريعاً نحوه. ولكنه قام بلباقة، وكان بارع الحيلة من دون شك، فلم يبتعد نهائياً، بل اكتفى بأن قفز عدة قفزات كحيوان زاحف، لا يتنازل للماء في كل مرة إلا عن قليل من الأرض، ثم يعود إلى الانبطاح بعناد في ظل الشجرة ذاتها، ليُنتزع من مكانه مرة أخرى بسيل الماء الذي ما تلبث قفزة جديدة أن تبعده عنه دون أن يضع حداً لألاعيبه، كما لو كان موجوداً أمام أي ماء كان، أي نهر يستولي على أحلامه الآن، ويشعره أنه يسبح فيه.

لم أعد أشك في أن سحر نجمة سيصيب هذا المغفل إذا لم يكن قد أصابه فعلاً؛ وكنت أبتهل إلى الله ألاّ يأخذه تحت شجرته مرض عقلي شبيه بهواي، يودي به إلى الجنون، فأضطر إلى قطع أحلامه، أنا الرجل الإنسان!

وأشعلت غليوني من جديد، وأنا أنوي محادثته: «أيها الرجل الأسود. أترك هذا الظل قبل الظلام، خشية أن تضل طريقك... عد إلى بيتك! إن الشمس تنحدر نحو المغيب... فلنتحادث، ما دمت لست المنافس ولا الضحية حتى الآن. لقد كان الكلام يستعصي علي، ولكن لساني يتحرك في فمي منذ وقت طويل، كبناء مزدحم بالتنانين!».

كنت أهم بمثل هذا الحديث دون أن أنتبه إلى آثار الحشيش السيئة؛ فإذا بكلماتي تضعف، وتتقطع. أما المنادى فقد استمر يغط في نومه، ويواصل قفزاته غير مستجيب لخواطري الهامسة، حتى تركت مكاني وأنا خجل لإضاعة يومي بهذه الطريقة.

وتطلّع إليّ سي مختار الذي كان وجهه شديد الاحمرار، وهو يُقْسم أنه ذاهب لانهاء بقية أيامه في الوحدة، وان ذلك أفضل له من مشاهدة أدمغتنا تتصدع في مثل هذا الدُّوار.

وأجبت:

– هل هي خطيئتي؟ أعليّ أن أسحق نفسي لدى أي بادرة مني، كمتوحش أُنعم عليه بطائرة؟ إذا كنت قد وضعتني أمام نجمة، فعليك ألاّ تضطرب في كل مرة تتغيب فيها...

– وأنت... كنتُ أعتقدك أكثر صلابة، لو لم تكن تغني دائماً... لقد أضعت التام؟ تام من جديد.

قلت:

– يا إلهي! ها هو ذا! إنه مصبوغ بالدم!

قال سي مختار:

– لقد اقتلعت العاصفة أصابع قدمي، بينما كنتما تستمتعان بالشمس. ولكن الدم لم يضع. هاته. سأشربه. لنتعزّ بالعودة إلى موسيقانا... ولكن أرجوك ألا تضطرب. إن فننا يتطلب الهدوء، والسكون أمام كل التجارب... وإلا... فويلٌ لك من العذاب!

– وهذا اللون الجديد الذي يصبغ وجهك...

– إنه لا شيء... لنعزفْ!

لم أستطع أن أقول شيئاً. وأخذت العود بخضوع بينما كان يضيف: «اعزف لحناً لا أعرفه جيداً، حتى ندع فرصة للتام؟ تام ليجف».

– ها أنت قد جرحت جرحاً بالغاً. وقد تكون قدماك مطحونتين. وتريد أيضاً أن تضرب على التام؟ تام؟

كنا نتبادل هذه الكلمات...

وإذا الباب يدفع بعنف.

قالت نجمة:

– كنت على يقين بأني سأجدكما هنا كليكما تتنازعان، بينما كنت هناك عرضة لفضول زنجي...

وهمست، يا إلهي! ها هي أحلامي تتحقق...

وأجاب سي مختار، وقد تهللت أساريره:

– ها، ها... إنه زنجي؟ إنكما باردان! دعي عنك ذلك يا ابنتي، فإن الزنوج أصدقاء الله. إنهم بالإضافة إلى ذلك يضربون على التام – تام ببراعة فائقة.

5

كان ذراعي الأيسر قد استطال إلى حد بعيد. كانت البحيرة التي خيمنا إلى جانبها ترتفع فوق الحصى، وتعوم بين الأرض والسماء. وأنصتُ إلى الحشرات تشق طريقاً في الغابة، وخلت أني أسمع حتى سَرَيان النسغ في هدأة الليل. أحسست كل هذا، وأكثر من ذلك... كانت بحيرات جديدة، وأشجار على وشك أن تولد في أعماق الأرض، وهي تقسرني على أن أرهف سمعي في عذوبة الأرَق. وبقيت مستلقياً وأنا أغالب رغبةً في السباحة جاءت متأخرة. وما هي إلاّ لحظات حتى انهارت أفكاري المشوشة، وشعرت بضعف شديد. كان عليّ أن أعود إلى المخيم، وأخذت أخيراً مكاناً بين عشيقتي وأبيها. لقد فات أوان التفكير. كنت أشعر بكلمات التحدي تحوم على شفتي، ولكني كنت أطردها لئلا أزعج أحداً. وساد صمت طويل... كان كل منا يصطنع هيئة ساخرة ليخفي اضطرابه. كان أقلنا اضطراباً يمكنه في أية لحظة أن ينفطر في كلمات مرة، لو لم نباغت بقصف الرعد الذي أعاد إلينا هدوءنا. ثم تركتنا نجمة... وراح سي مختار يلقي حديثاً بلغة العلماء المعروفة وهو يتقلب على فراشه. لم أكن أفقه من حديثه شيئاً، وعندما حاولت إيقاظه، ظناً مني بأنه تحت وطأة كابوس، أومأ لي بشدة أن التزم الصمت... كان الليل يتقدم... وانتصب فجأة واقفاً على الرغم من الضماد المشدود على قدميه، فريسة لشيطان الفصاحة. كانت قدماه تنزفان. لم أستطع تحمّل ذلك المشهد. كان هواء الحشيش يخرج من النافذة ولكن سي مختار كان يزداد غرابة في عيني من لحظة إلى أخرى.

قال:

– سأنام هذه المرة... لست مستاء من نفسي.

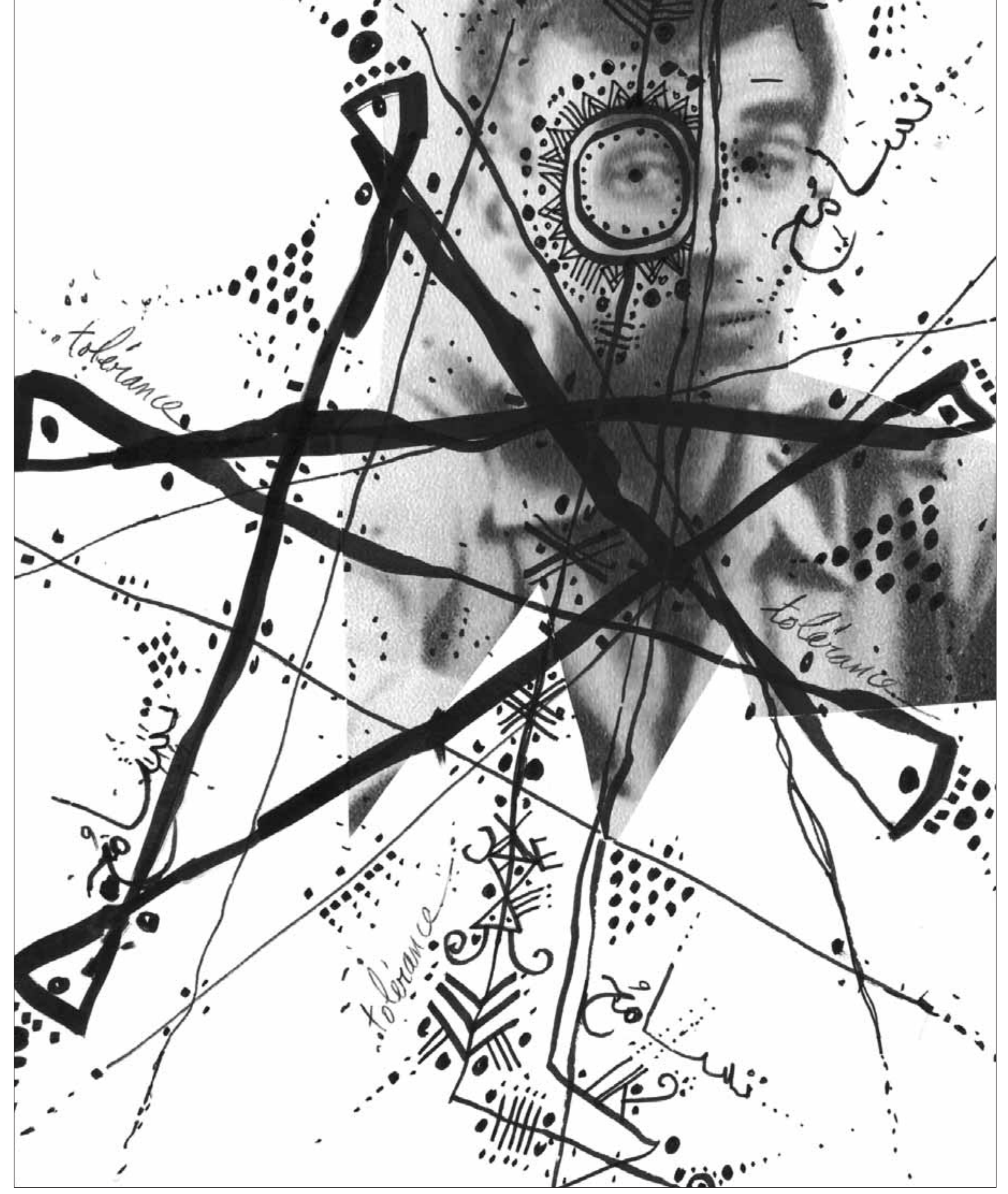
فأجبته:

– أنت على حظ كبير.

وبدأ المؤذن ينادي للصلاة. يظهر أنه قد أخطأ الوقت... فعلى الرغم من أن سي مختار دقيق في مثل هذا الموضوع، إلا إنه لم يستيقظ لوضوء الفجر. وواصل المؤذن تسابيحه فترة طويلة، حتى إذا ما انتهى كان الفجر قد طلع بوضوح، واستطعت حين ذاك أن أتخلص من الأرض...

6

وحملنا بعض الأطعمة، وما نحتاج من اللوازم، لتمضية أسبوع في الغابة؛ وسرنا على أقدامنا طويلاً قبل أن نلمح أمامنا على البعد منزلاً مهدماً يبدو من دون مالك. وكم مرة تهنا بين الأشواك. ثم وجدنا أنفسنا أخيراً أمام سهل واسع. لم يكن المنزل بعيداً. ولكن لم يكن أي منا يرغب في الذهاب إليه. كنا منهوكي القوى، فأعددنا الخيمة لقضاء الليل. وبعد العشاء بعدة ساعات، بينما كان الأب وابنته ينامان، سمعت صرخة؛ فقمت متثاقلاً، وأصختُ السمع. لم يتناه شيء بعد ذلك إلى سمعي!... يا



للشيطان! هل هو حادث من جديد؟ وجمع بعض الأغصان الصغيرة لأشعل النار. كانت الريح ما تزال تهب من الشمال الشرقي على السهل، فأحسست بالبرد. كانت تلك الصرخة هي التي تحول بيني وبين العودة إلى الغطاء، ولكن لم يعد أحد يصرخ. أيتحتم عليّ أن أبقى في هذا الوضع حتى الصباح؟ هذا ما عملته بجرأة ما أزال أشعر نحوها بالإكبار.

وقدم إلى مخيمي رجل يتعثر في برنسه، وهو يغطي رأسه بقبعة البرنس. ودون أن ينبس بكلمة، راح يدفئ يديه إلى جانبي؛ ثم أدلى إليّ باعترافاته بلهجة شديدة الصدق، بالغة الحزن، حتى أنني هنأت نفسي لانتظاره الليل بكامله، وشكرته في صميمي. شعرت بأن كلماتي لم تكن تعجبه، ولكن ذلك لم يغظني. (لقد قدرت صراحته وعدم لجوئه إلى المكر). وكان كلما ازداد في الحديث اكتشفت أنه على جانب كبير من الصفات الممتازة. كان يُزأزئ (يقلب الجيم إلى زاي)، ويبتلع عدداً من الحروف الصامتة، لذلك يصعب أن يكون من شرقي الجزائر. ولكنه لم يكن يبدو عليه أنه غريب على وجه التحديد. أتراه كان له أصدقاء في النواحي المجاورة؟ ربما كان يعرف الشخص الذي صرخ منذ لحظات!

– أعذرني على سؤالي هذا. ولكن ألم تسمع هذه الليلة قط صراخاً؟ ربما كنت نائماً؟

قال الغريب في دهشة:

– صراخ؟

– نعم، ولذلك بقيتُ ساهراً أمام النار، منتظراً أن يعود ذلك الصوت.

وعلق قائلاً:

– أية فكرة؟ إني لم أسمع شيئاً. ويشهد الله أن لي أذناً مرهفة! ربما كان عصفوراً؟

وصرخت وقد تصاعد الدم إلى وجهي من الغضب:

– أتعتقدني متمدناً لدرجة أن أترك غطائي لصرخة عصفور؟ كيف يكون ذلك؟ إني أقبع ساعات وأنا أرتجف من البرد، لأغيث مسكيناً، ثم يسخر مني بكل بساطة؟

– لا تغضب...

وفي تلك اللحظة صرخت نجمة صراخاً شديداً، وقد شغلتها كلماتي دون ريب. وغاب الرجل بطريقة أكثر غموضاً من تلك التي جاء بها. وأسرعت إلى نجمة التي كانت ترتعد، وأنا أحاول أن أطرد ذكرى ذلك الرجل الملثم، واعداً نفسي بتسوية الأمر فيما بعد. وبدا عليها أنها تصدقني. أما سي مختار فقد جربت عبثاً إيقاظه بضربات من قبضة يدي؛ فقد رأيته يسر على النوم في تلك البرية الملعونة، وخشيتُ أن يكون هذا النوم دلالة على الانهيار التام. فإن سي مختار اضطر، حين قادنا إلى هذه البرية، أن يأخذ نجمة بين يديه، ويردفها وراءه على الفرس، بينما كنت أتبعهما أنا على قدمي، وأشاهد الدم يقطر من خلال الضماد، نتيجة للحادث الغامض الذي فجر أصابع سي مختار وحده (بينما كنا أنا ونجمة معه) دون أن ينتحب أو يصيح. أما الآن، فسي مختار ينام بالرغم من ذلك، وعليّ أن أتركه يرتاح. ولم ألبث أن ألقيت برأسي على ركبتيْ نجمة، أمام الجمر المحتضر.

ما السبيل إلى تبديد ذعر نجمة؟ أتراها ما تزال تفكر بالزنجي؟ إن هذا الرجل كان ذا كياسة نادرة ما دام لا يغادر مكانه، وهو فريسة أهواء كثيرة، يدخل في عدادها حبه لنجمة، والعبادة لمؤسس القبيلة، قبلوت القديم، الذي ربما كان هذا الزنجي أحد أحفاده أيضاً... فإن تاريخ قبيلتنا لم يكتب في وقت من الأوقات؛ ولكنه ظل متصلاً لم ينقطع فيه أي خيط من الخيوط بالنسبة لمن شاء أن يبحث أصوله. فاذا كان هذا الزنجي أحد أبناء قبلوت فإن ازدرر اءه لنا يمكن أن يُفسَّر بنفس الطريقة التي يفسر بها الجفاء الذي قابلنا به كل أقربائنا الذين بقوا في الندحور، بينما كنت أنا وسي مختار من فرع الهاربين. وربما ان كل رجال القبيلة قد نُفُوا أو ماتوا، فإن هذا الزنجي الأمين للندحور يستطيع حتى أن يطردنا، ما دمنا نحن الأبناء الذين باع آباؤهم حصتهم في الأرض، وساهموا في دمار ما بناه الأجداد.

كنا أنا وسي مختار ما زلنا نستمتع بالجو الرائع الذي يبدو كأنه لا يفارق هذه الأرض مطلقاً. أما نجمة، التي غارت من الصداقة التي تربطني بأبيها فقد نجحت في أن تجعل حضور سي مختار يُثقل علي قليلاً، كما أصبح الشقي العجوز يعاملني الآن من علٍ. ولعل ذلك التنافر هو الذي كان يحبب إليّ حياة الثلاثة، ذلك الخصام الذي كانت نجمة تزرعه في كل مكان دون أن تنوي الشر. إنه سلاح المرأة على وجه الدقة، السلاح الذي أطمع بجرح واحد منه، قبل أن آخذ طريقي، فإن الفراق يبدو لي أمراً لا بد منه. ثم بدأنا نتغافل عن هذه الأشياء لأننا لم نكن نحرص على زرع الاضطراب في حياتنا، كنا نريد، قبل أن نواجه المستقبل، أن نعرف كل الباقين من القبيلة، أن نجوب المنطقة... وهذا ما كنا نفعله. ولكن التوقف في البرية امتد بسبب من مرض سي مختار. وهذا ما كنا نفعله. ولكن التوقف في البرية امتد بسبب من مرض سي مختار. لقد راح يهذي طيلة اليوم... وفي اليوم التالي، جاءنا رسول من القبيلة. كان شيخاً يقارب سي مختار في السن. ثم تبعه بعد قليل رسولان آخران. وكانت نجمة مختبئة تحت الخيمة، ترقبهم بخوف. وراح الرسول الأول يضحك، وهو يقول:

– قل لهذه الطفلة أن تظهر مكشوفة الوجه. إنها من أهلنا. إنها امرأة قبلوتية. وعلينا يقع واجب حراستها في المضارب. ثم إنها لم تخلق للحياة مع المهرجين...

– نحن أيضاً من أبناء قبلوت...

– ربما كان ذلك... ولكن ماذا قدمتم للقبيلة وأنتم رجال؟ لقد تذرع آباؤكم الخونة بأنهم إنما يعملون عند الفرنسيين ليعودوا إليها أكثر قوةً. فأين هي قوتكم؟ هل هي العود، والتام ؟ تام اللذين جئتما بهما من المدينة؟ إذا كنتم قد انتهيتم إلى الفجور فهذا من شأنكم؛ ولكن لا تفسدوا النساء! إنهن لسن مسئولات عن خيانتكم. إننا سنحافظ على كل أراملنا وبناتنا، ولو أن آخر أيام القبيلة قد دنت، ليعرفن طعم الجوع تحت خيام قبلوت. ليس ذلك مصيبة... إننا ما نزال بضعة رجال بلا أرض، ولا مال، نقف حراساً على مضارب القبيلة المهزومة... أتركوا لنا نجمة، واذهبوا؛ إني أكلمكم دون غضب...

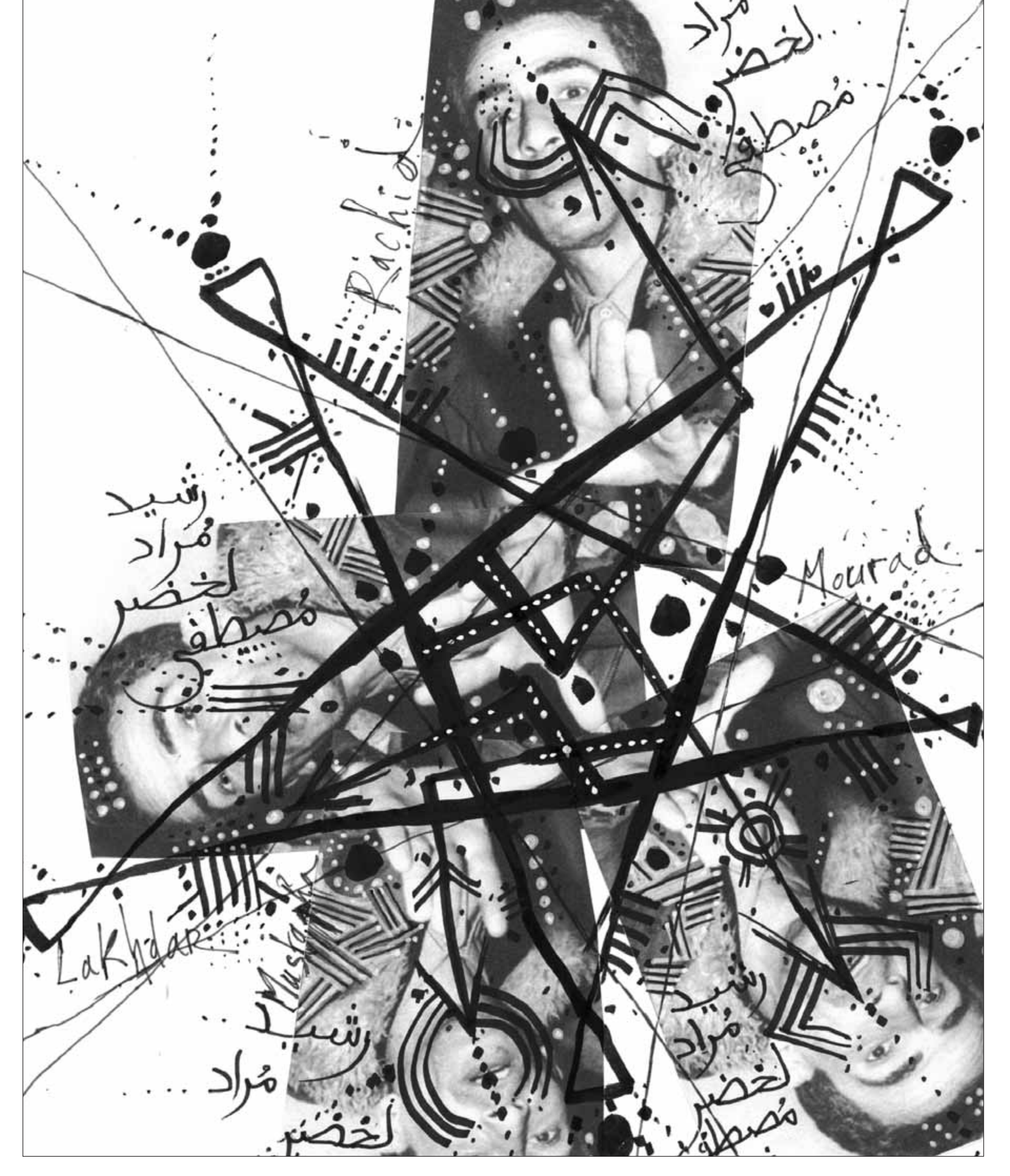
ثم راح الرسول يضحك بعد أن تبادل بعض الكلمات بصوت منخفض مع تابعيه.

– انكم تطردوننا وتضحكون مع ذلك؟

– إننا نضحك لأنكم، بحمد الله، لستم أولئك المجانين الخطرين الذين نخشاهم. إن الفرنسيين لم يعلموكم شيئاً بكل تأكيد... يقال إن قبلوتياً منكم، وهو من فرع الموظفين، قد أصبح كولونيلاً في الجيش. ذلك هو الرجل الخطر. لقد كان ضابطاً في المدفعية، أرسله الفرنسيون إلى مراكش، وإلى سورية. لقد حارب من أجلهم، وتزوج فرنسية، وأصبح يمتلك ثروة. إن هذا الرجل يمكن أن يعود كما يعود اي خائن بقوته الجديدة ليشتري أراضينا. ويلحق العار بالقبيلة. وما أظن إلا أنه قد نسي قَسم آبائه. أما أنتم فاذهبوا دون خوف. ليس عندنا هنا حشيش ولا خمر، وليس بيننا من يتذوق موسيقاكم.

قلت:

– أصغوا إليّ. لم نتعمد قط أن نغيظكم... عليكم أن تحترموا آخر فيلسوف في القبيلة على الأقل، سي مختار الطبيب الذي فقد أصابع قدميه أثناء العاصفة، إنه على





فراش الموت. لا يمكنكم أن تذهبوا بنجمة الآن. إننا نطلب منكم باختصار أن تشاطرونا حياتنا بضعة أيام...

– يمكننا أن نقبله في مدافن القبيلة إذا ما مات. ولكن عليك أن تغادر المكان فوراً بعد ذلك، وتترك لنا ابنته.

وعندما يئست من إقناعهم لم يكن أمامي إلا الرضوخ. كانت نجمة تنتحب قرب أبيها المحموم. أما أنا فقد استلقيت في الجهة المقابلة، ونمت هذه المرة دونما إبطاء. كنت أحلم بسي مختار فأراه في الباخرة التي كانت تقطع البحر نحو مكة، ثم في السودان المصري، على ضفة النيل. وعندما انتهى حلمي كان سي مختار قد مات. ووجدتني وحيداً مع الجثة... ولا أثر لنجمة هناك...

وأخيراً ظهر الرسول العجوز، يتبعه رجل قد أزاح قبعة البرنس عن رأسه، فعرفته على الفور: إنه زنجي الشجرة، شجرة التين، الذي كان ينظر إلى نجمة وهي تستحم. وكان أيضاً الرجل الذي جاء يتدفأ على الجمر، وهو يخفي وجهه.

قال لي العجوز:

– الفتاة في خيام القبيلة، فابتعد الآن، ودعنا نقوم بغسل الميت.

وحينئذ، نحاني الزنجي جانباً بلهجة متوعدة...

7

صياد ماهر، ساحر، قائد جوقة، طبيب فقراء... ذلك هو الزنجي الذي رأى سي مختار يصل إلى الجبل. كان هذا الزنجي على علم بكل ما يقع في الدوار من أحداث. كان منذ نعومة أظفاره يجوب الندحور طولاً وعرضاً، ليل نهار؛ وفي هذا الفصل شاهد الشيخ يصل إلى المكان ويستقر مع الفتاة؛ ولكنه لم يلاحظ رشيداً، ولم يسمع عنه شيئاً حتى ذلك اليوم... واستنتج الزنجي أن سي مختار ونجمة يؤلفان معاً زوجين مريبين، طردا من إحدى المدن، وجاءا يدنسان أرض الأجداد. كان ذلك ما دار في خلد الزنجي على الأرجح. ثم راح ينتظر بداية العاصفة، قابعاً أمام الباب المفتوح، واضعاً بندقيته أمامه. واستغل قصفة رعد، تبعها برق خاطف، ثم برد ثقيل تساقط كالحصى، وأطلق النار على التخمين من فتحة الباب التي كان يرى منها شبح سي مختار العجوز. وانهال الرصاص يثقب قدمي الشيخ، فإذا هو يغيب عن وعيه. أما رشيد ونجمة فإنهما لم يريا وميض النار، ولم يسمعا صوت الطلقة في قلب العاصفة. وقد تراءى لهما أن العجوز ما يزال يغط في نومه، ولم يلاحظا الزنجي المترصد، (كانا غارقين في عالم آخر من الحب والموسيقى). وخرج رشيد ونجمة بعد العاصفة، منتهزين الفرصة... كانت المرة الأولى التي يجتمعان فيها معاً منذ لقائهما الأول في المستشفى، قبل عدة سنوات. وفي أثناء ذلك كان الزنجي قد غادر مكانه، وأخفى بندقيته بين العوسج، ثم توارى هو نفسه تحت شجرة التين... ولم يلبث أن أغفى، دون أن يأبه للرصاص الذي أطلقه على رجه عجوز لا يعرفه؛ ولكنه مع ذلك حاكمه، وحكم عليه، ثم نفذ الحكم فيه أخيراً كما يؤدب طفل، أو يصرع لص من بنات آوى...

واستسلم الزنجي بكل بساطة للرقاد؛ ولم تبصره نجمة، ولم يكن قد لاحظ هو بدوره رشيداً حتى الآن. كان الزنجي مستسلماً للنوم بكل بساطة عندما فاجأته نجمة تحت شجرة التين، مبتلاً حتى عظامه بماء المرجل الذي سفحته على الأرض، بينما كان رشيد يعود إلى الغرفة، إلى جانب سي مختار...

كان الزنجي ينام بطريقته الخاصة. وشعر بنجمة تنظر إليه، ففتح عينيه بهدوء وانتفض واقفاً بقفزة واحدة... ولم تستطع نجمة الهرب... فبادرها الزنجي بالكلام، وهو يثبت فيها عينيه الكبيرتين البراقتين، وادعى بأنه مرسل من قبل الأرواح، أرواح القبيلة، لحراسة بنات قبلوت، وراح يسأل نجمة عن العلاقات التي تربطها بالشيخ سي مختار، ولم يشأ أن يصدق بأنه أبوها. واتضح لنجمة أن الزنجي قد أصابه مس من الجنون، فانطلقت هاربة. وفي الغرفة، كان سي مختار ما يزال متمدداً، لم يستطع رشيد تهدئة روعها. كانت مقتنعة بأن الزنجي سيراقبها من الآن فصاعداً، وهو يُعد قرباناً غامضاً، ولا بد أن تكون هي نفسها الضحية المنشودة، دون أن يشعر مرافقوها بشيء من ذلك... وعندما غادر الثلاثة المكان، كان الزنجي ما يزال يراقبهم. وقد قدَّر أن سي مختار لا بد منتقل إلى الهجوم ما دام قد كُتب له أن يفلت من القتل، وإنه يريد أن ينتزع نجمة من القبيلة بعد أن حاول فرض نفسه عليها. ولكن وجود رشيد حير الزنجي، فمضى يتابع المسافرين الثلاثة حتى البرية. وهناك رآهم ينصبون الخيمة...

وانتظر هبوط الظلام. وخرج سي مختار عندما رأى الزنجي ينزلق إلى جانبه ولم يستطع رشيد ونجمة أن يميزا خياله لدى مدخل الخيمة، وفسرا صرخة سي مختار بأنها ليست أكثر من كابوس. ولكن الزنجي كان قريباً من الخيمة، فشاهد رشيداً يخرج منها، ويشعل النار. وحينئذ تساءل عما إذا لم يكن قد أطلق النار ظلماً على العجوز الذي ربما كان حقاً أبا نجمة، ما دام لا يعيش معها وحده، وما دام الشاب يرافقهما. ولذلك ذهب الزنجي بعد أن تحادث مع رشيد لزيارة كبار القبيلة الذين نذروا أن يعيشوا نساكاً في الغابة... وتحدث إليهم عن رشيد، وأسف أسفاً صادقاً لاطلاقه النار؛ لم يكن كبار القوم يصغون إليه باهتمام كبير، لأنهم لا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن الصلح مع أقربائهم الذين هجروا القبيلة، وسببوا لها الهلاك، تاركين الجامع أنقاضاً، والمزار دون علم، هؤلاء الأقرباء الذين صاهروا أسراً غريبة، وباختصار، خانوا القبيلة التي أقسمت ألا تقبل ذريتهم إلا كغرباء لا يستحقون أكثر من الإحسان... وانتهى الكبار بإرسال رسول لرشيد، يطلب إليه أن يترك نجمة، وأن يغادر الرجلان الطريدان المكان على الفور. وعندما مات سي مختار لم توقظ نجمة رشيداً، بل هربت وحدها، فإذا الزنجي المخبول يعثر عليها، ويقودها عنوة إلى مخيم النساء...

ثم لم يلبث أن ذهب لمقابلة رشيد، وهدده بالقتل إذا ما حاول رؤية نجمة فكيف إذا فكر باختطافها! وعندما اغتاظ رشيد من هذا التهديد أمسك به الزنجي من ذراعه قائلاً:

– لقد أوصانا قبلوت بألا نحمي إلا بناتنا... أما الرجال المتشردون، فقد لفظ جدنا قبلوت فيهم حكمه: «ليعيشوا كالمتوحشين، في الجبال والوهاد. أولئك الذين خانوا أرضهم، ولم يدافعوا عنها...».

8

«الدهماء»... أعلنها الرجل الذي كان منتصباً بجانب الباب، لم يعرف طعم النوم طوال الليل. ولم ينهض رشيد، بل اكتفى برد ياقة سترته فوق قميص الجندي العتيق الذي كان يرتديه، وهو ينحني إلى الأمام، ملصقاً جبينه وأنفه وشفته الغليظة بالزجاج، كما لو أنه لا يريد أن يرفع بصره عن ضواحي قسنطينة التي تمر متجددة أمام عينيه... والتي كانت تمتد ببطء، وتبدو بعيدة المنال، تقفز، وتتحجر، دونما أية حفاوة أو قناع من العظمة. لقد أطلق عليها سكانها المعلقون: «الدهماء»... «الساحقة»، فهي ترتفع تدريجياً نحو الرأس الذي يعلو منطقة التلال العالية المغطاة بالغابات، ذات الأرض التي ما برحت في ثورة دائمة، تزلزل السطح والأعماق، منذ الفتح الروماني، حتى شحنات القمح التي سيّرها تجار البندقية، لترقد دون أن تدفع أثمانها في عنابر حكومة «الديركتوار». كانت قسنطينة مغروزة في موقع أثري، تبرز منه بأنوارها الشاحبة، المتراصة كزنابير على استعداد للانبثاق من تجاويف الصخور، دون أن تنتظر النظام الشمسي ليوجه طيرانها الذي ما يلبث أن يكل... إنها ترتفع نحو رأس منيع، يغيب في عرين من النبات، كعش الزنابير يبدو خالياً ومكتظاً في آن واحد، وقد دفن في باطن الأرض، بقرميده، وأنفاقه، وقنواته، وأروقته، ومساطبه، وبقايا مسرحه المدرج المفتوح من جميع الجهات والمغلق في وقت معاً.

إنه الصخر... الصخر الهائل الذي بَقَرته السيول الجارفة ثلاث مرات، السيول التي لا تعرف الكلل، والتي كانت أبداً تشق الطريق، وتغوص إلى الأعماق في ضربات صاخبة، وهي تحفر هذا الجحيم المثلث بكل قواها المهدورة، خارجة عن مجراها المخرَّب أبداً، دون أن تستطيع الثبات حتى مثواها الأخير حيث الكتل الصخرية المقلوبة رأساً على عقب. مقبرة خائبة لم يأت إليها السيل قط ليعيد لها الروح. تُبعثُ في مرتقى عال جداً في شلالات لا تنطفئ، ثم تغرق على جوانب ملتفة كالقمح، لا ترى إلا من الجسرين القامين على «التل» من الوادي، حيث يتحول الوادي الكبير إلى شلالات تتهاوى متدحرجة من هوة إلى هوة... مياه متوحشة تهدر، لا يحجزها مِرجَل، ولا حوض؛ صخب أصم دونما نهاية ولا بداية، يغطي بهديره زئير الآلة الضارية التي تقل سرعتها شيئاً فشيئاً، وهي تجتاز بقايا الخضرة، تلك المروج التي لم يطأها انسان ولا قطيع، المروج الساطعة تحت طبقة الجليد الخفيفة المزدحمة بأشجار التين العارية الشوهاء، بأشجار الخرنوب، بجذوع الكرمة التي تضمحل، بصفوف أشجار البرتقال، بمجموعات أشجار الرمان والأكاسيا، والجوز، بوديان النفل والسنديان، حتى تخوم السديم الضبابي الهائل... إنه الصخر... بعزلته التي يحاصرها العوسج... الصخر الضخم بشتائه الذي ينتهي في حناياه القاسية الغضبى، إنه... سي مبروك...

كانت القاطرة، وقد لفها سواد الدخان، تبدو ضائعة عند كل منعطف، لدى كل انفلاتة، لدى كل أذى تحدثه المدينة العنيفة الملحة – دهماء... تسحق عن قرب، كما تسحق عن بعد – قسنطينة التي تجيد التنكر، فهي حيناً مجرى نهر يتوب إلى الله، وحيناً ناطحة سحاب وحيدة ترفع قبعتها السوداء في أجواز الفضاء: صخرة فاجأها غزو الحديد، والاسفلت، والاسمنت المسلّح، والأشباح ذات الأواصر الممتدة حتى ذرى الصمت، فبدت مطوقة بين الجسور الأربع والمحطتين، يحددها المصعد الهائل بين الهوة وحوض المياه، ويضيق عليها الحصار من أطراف الغابة كلها، ويعمل فيها الزمن ضرباته، وتتراكم فيها الأتربة حتى الفسحة الكبيرة، حيث تنفصل عن مشاهد التلال العالية... قسنطينة... مدينة الانتظار والوعيد... يلح عليها السقوط بإغرائه. وتجتاحها الهزات المزمنة... قسنطينة... مقر الزلازل والنزاع، المفتوحة للرياح الأربع... ولكن ما اهتزت الأرض فيها يوماً، وبرز الفاتح، إلا كانت المقاومة الخالدة. عشر سنوات من الحصار، دخل بعدها «لاموريسيير»[1] المدينة... عشر سنوات تمر بعد بن باديس، والمؤتمر الاسلامي، وتنفجر ثارات 8 أيار... وأخيراً يأتي رشيد؛ يطل على المدينة بعد عشر سنوات من تسريح أبيه، ومقتله، ويتنفس من جديد رائحة الصخرة، وشذى الأرز الذي راح يحسه من وراء الزجاج، حتى قبل أن يميز أول الأعمدة. كانت القافلة التي استحالت إلى ضوضاء أفراس مجهدة، تسبح فوق يوم آخر، وهي تعوي وتقفز خلال المراعي القديمة، المراعي التي استمدت منها في الماضي قوتها عندما كانت الخيل الأداة الحقيقية للسفر. هذا ما كان يدور في رأس رشيد، وهو يرى الحصان المذعور ينساب على الخط الحديدي. لم يكن الحصان ينظر إلى لجامه أمام صوت الشلال الذي يخلفه بعيداً وراءه. وهو يجر قوته المغتصبة.

ووصل رشيد. عاد بعد غياب طويل. هذه هي المحطة، والجسر، والعربة التي ما برحت تسد طريق الحافلة الكهربائية (الترولي باص). إنها هي هي، الصخرة التي ولد فيها، والتي نزح عنها مرتين متتاليتين: أولاهما تحت لباس الجندي، والثانية تحت سلطان المرأة التي خطر له أن يلجأ إلى الورشة هرباً منها، الورشة موضع الجريمة، الجريمة الثانية التي ارتكبها أحد أصدقائه، والتي أعادت رشيداً إلى المكان الحدد الذي سقط فيه والده تحت رصاص صديق آخر، كان رشيد يعرفه عن كثب، كان يشك به حتماً، ولكن ذلك الشك جاء متأخراً، لأنه كان يحبه إذ ذاك أكثر من أبيه الذي قُتل قبل أن يرى صغيره النور. لم يكن عنده ما يأسف له. لقد كان حزنه سطحياً، أشبه بقبعة تعلو رأسه، كهذه الصخرة التي كانت تثقل على الهارب من الجندية... لم يكن يأبه كثيراً لكونه ملاحقاً. ولم تستطع المدرسة، ولا الجيش، ولا الورشة، أن توقفه حتى من قبل أن يجتاز الحدود، عندما كان ينظم إضرابات الطلاب. لقد علّمه رجال الشرطة الحصانة. كان مأواه إذ ذاك مأوى كل طريدي العدالة: أحراج الريميس حيث توارى ليلة عودته الأولى إلى قسنطينة. في ذلك الوقت اجتاز صحراء طرابلس الغرب مشياً على الأقدام ليعود إلى وطنه، ولكنه في هذه المرة اتجه رأساً إلى

المنزل الذي ورثه عن أبيه.

ودفع رشيد الباب الخشبي الضخم، دون أن يهز الحلقة. كان المنزل المهجور يشرف على قاعة المحكمة العسكرية من كوة أحدثتها، على ما يظهر، وقاحة عائلة تركية، كانت تهتم بمراقبة التحركات في حي القصبة. كان منزل رشيد يرى على بعد مائة خطوة من مدخل البوابة، وسط موجة من الأقذار والوحل التي كانت بلدية المدينة تحافظ عليها باسم التقاليد الشعبية. كان المنزل مطلياً بالكلس الأبيض بقسوة تجرح النظر. أضف إلى ذلك أزرق الميتلين... وكان هو الحد الفاصل بين حي اليهود، والمدينة القديمة. كانت هناك بنايتان متوسطتان تسدان البوابة من اليسار، ومن اليمين كان جدار البناء الذي يقيم فيه مساعد الحاكم العام يتجاوز ما حوله. إنه مقر المحكمة التيكانت تحاكم الهاربين من الخدمة العسكرية. وكانت حديقة مهملة تغمر أنقاض بناء رابع دمرته مدفعية «دامريمون» خلال الهجوم الثاني الذي استغرق أياماً أربعة ظلت المدينة طوالها تحت رحمة القنابل. كانت الفرق الأربع تطلق النيران عن كثب... وكانت أعالي حي القصبة ترد الضربات صاعاً بصاع؛ كما لو أن القنابل المعادية لم تكن تستطيع شيئاً أكثر من أن تمر بمحاذاة الجدار والصخر. ثم انفجر مخزن البارود... وكانت تلك آخر ذخيرة عند المحاصرين... وعندئذ، تم الفتح منزلاً إثر منزل، من أعلى القلعة التي تحولت الآن إلى سجن مدني يمضي المغلوبون فيه أيام سجنهم تحت تهم ملفقة لا تمت إلى الحقيقة والواقع بصلة؛ فالجرم الذي سجنوا من أجله أقدم من تلك التهم التي أُلصقت بهم... إن الإثم الخطير الذي ارتكبوه كان في الواقع يتجسد في صمت مخزن البارود المهجور... من أعلى القلعة راحت مدفعية الحصار تسحق أوكار المقاومة الواحد تلو الآخر، حتى وصل الغزاة إلى ساحة «البريش» التي أنشئت المدينة الحديثة ابتداءً منها... وأخيراً إلى باب السوق. ودخل «لاموريسيير» نفسه، والفأس في إحدى يديه، والسيف في الأخرى... «حوالي الساعة السابعة»، كما طاف في ذاكرة رشيد...

الساعة السابعة التي ظهر فيها قائد الفرنسيين بين الخرائب التي لم يستطع قرن كامل أن يزيلها... منذ دخول (لاموريسيير) لم يغير هذا الحي من سير حياته شيئاً: التجارة، ومكاتب الأعمال، والتسول. أما الورشات الكبيرة التي وعد الفاتح بتشغيلها فقد كانت مثار اهتمام السكان كحلم غريب، جدير بالعصر الذري، حلم كان ينتظره الكثيرون، ليؤسسوا بيتاً، أو يشتروا قميصاً... ولكن الورشات الموعودة اقتصرت على بناء عدد من الأبنية الضخمة، وعدد من المعامل بشكل فوضوي؛ واستمرت البطالة في أغنى الولايات الثلاث، في المدينة نفسها «التي جاء إليها ديغول نفسه ليمنحني شرف مواطنتها...» ودمدم رشيد بتأفف: أرجو ألا يكونوا قد رأوني أصل وحيداً من دون حقيبة. قال ذلك وهو يجر إليه السلم المنزوع من مكانه، ويتطاول حتى السطح، وهو على الدرجة الأخيرة التي يصل طرفها حتى ركبته... ليس هناك مثل أبناء العائلة من يقتص أثر صديق سقط في محنة، فلكي يعرفوه لا يحتاجون إلى أكثر من معرفة الطريقة التي يمشي بها. ومن ترى ينتظر عودتي منهم؟ يمكن أن يكونوا قد أطلقوا العنان لشراستهم، وخطر ببالهم اني أجمع ثروة في الخارج، بعد أن أوصلت أمي إلى اليأس... والغريب أنهم لم يقتربوا مني منذ أن وصلت المحطة... إن ظهوري أمامهم ليس من صالحهم كما أنه ليس من صالحي في هذا الوقت بالذات. كان رشيد يعرف كل مستأجر في تلك الأكواخ الحقيرة التي تفوح منها رائحة الطعام الحادة، الأكواخ ذات السلالم الحلزونية المدوخة، المزينة بالفسيفساء. كانت الأبهة الشرقية تلتهم النور الضئيل الذي ينبثق من البوابات التي لا يستطيع فن بناء المدن الحديث إلا أن يشيح بوجهه عنها.

كان رشيد يجازف منذ طفولته، فيجتاز المدينة من أسوار التكنة عن طريق ساحة «الغاليت»، وساحة «الشامو» إلى الوديان، إلى الأنفاق التي كانت في الماضي مسدودة دون منفذ، والتي كان يُلقى فيها ضحايا الداي بعد أن يخيطوا في أكياس، إلى المنحدرات الكثيفة السكان... منحدر سيدي راشد والقنطرة حيث يتغلغل نهر الرومل تحت قناطر الجسر الروماني الست، الجسر الوحيد الذي بقي من الجسور السبعة التي كانت تصل سيرتا، عاصمة النوميديين، بعضها ببعض، إلى المساكن الحقيرة التي كان يراقبها من بعيد بين عصابات الأطفال عند ممر «بيريغو»: بيوت باب الجابية حيث استطاعت في ذات يوم عنكبوت اسمها «أم العز» أن تجذبه إلى شباكها...

غير بعيد من تلك البقعة ولا سي مختار... سي مختار العجوز الذي كال الحاكم الفرنسي له الكلمات بعد مظاهرات 8 أيار، والذي تظاهر وحده في طرقات المدينة أمام رجال الشرطة المدهوشين بكمامة تحمل بيتين من الشعر من تأليفه انطبعا في ذاكرة الجماهير التي كانت تمر هناك

لِتحيَ فرنسا...

وَصمتاً أيها العرب...

أما أبو رشيد الذي لقي مصرعه في ظروف لم تتضح قط فقد ترك لأرامله حلاهن، وكانت آخر ما يمتلك، كما ترك لهن قائمة من ديون الشرف والرهون. لقد بدأ الراحل حياته بتدريس اللغة العربية في المدرسة، وأوقف بسبب ذلك غير مرة ثم سرح لعدم استجابته للعقوبات. ثم أمضى آخر أيامه على قطع الأرض الصغيرة والمزرعة، بقايا الممتلكات التابعة للأسرة والتي كانت تتناقص من جيل إلى آخر منذ السقوط الدامي لموظنهم الأول (الندحور) الذي أقفر من سكانه الآن... كان قد تزوج أربع زوجات؛ لم تكن صغراهن عائشة قد ولدت رشيداً عندما أحضروا لها جثة زوجها. وكانت عائشة هي التي سهرت على راحة ضراتها الثلاث حتى غادرن المنزل بعد أن تزوجن مرة أخرى.

لم يستطع رشيد، المولود الأخير، أن يبقى طويلاً على صلة بإخوته وأخواته التسع. لقد رضع من أثداء ثلاثة: ثدي عائشة الأبيض، وثدي الزوجة الثانية، تلك المرأة الزنجية من «تقْرت» التي احتَفل بزواجها الثاني في نفس العام الذي تخَطَى فيه رشيد عَتبة المدرسة. ولقد باركت عائشة هذا الزواج، عائشة صغرى الأرامل الأربع التي لم تتزوج مرة أخرى. أما النسوة الثلاث فقد انتقلن مع أولادهن إلى منازل أخرى... وبدأ رشيد يكره منزل الهزيمة والحزن الذي ورثه عن أبٍ لقي حتفه في عنفوان قوته، أبٍ ما تزال شهرته تتجاوبً في أرجاء قسنطينة. ولم تكنً شهرته هذه لتقوم على تعدد الزوجات عنده بالطبع، وهو إرث آخر قضى على رشيد أن يبقى تحت سيطرة المرأة. كان رشيد وهو في العاشرة يحب حتى العبادة صنمين اثنين: أمه التي لا يريد أن يتصورها أرملة، والمعلمة مدام كليمانت التي لا يريد أن يصدق أنها متزوجة... كانت تداعب خده في بعض الأحيان؛ وفي اليوم الذي كان عليه أن ينتقل إلى الصف الأول انتظر الفرصة ليسرع إلى باحة مدام كليمانت... فاكتشفه السيد كليمانت، وعاد عليه ذلك بضربة لا بأس بها على خده، واضطر للعودة إلى صفه الجديد الذي ما لبث أن طرد منه بسرعة. لقد انقلب الخجل عنده إلى خمول، ثم إلى غضب مكتوم، وأخيراً إلى حب للشجار ولكن بلا أذى. وحيئنذ انقطعت الصلة العاطفية الأخرى التي تربطه بأمه... كان أبو رشيد قد عمل في المدرسة العربية فترة طويلة قبل أن يُسرَّح، واختلقت لتسريحه الأعذار، من تعدد للزوجات، إلى جنون العظمة، إلى أسفار خارج البلاد، إلى عدم الامتثال للأنظمة، إلى تعاطي الكحول بشكل متقطع. ولكن هذه الأعذار جميعها لم تكن إلا حججاً واهية. إنه قد اتُهم في الحقيقة بمساندة رابطة الطلاب، تألفت منذ وقت قريب، تحت راية المؤتمر الإسلامي الذي كان في طريقه إلى التشكيل... كان على رشيد أن يعد نفسه ثلاث سنوات أو أربعاً للاشتراك في مسابقة الدخول إلى المدرسة العربية؛ وكان حينئذ قط اطلع على الظروف التي اختفى فيها والده. كان بعضهم يروي أن أباه قد هلك في مكيدة. وراح رشيد يدرس بجد لا يعرف الكلل، مدفوعاً بمأساة أبيه التي سمعها من روايات أمه القليلة، ومن آلاف الشائعات الأخرى التي كانت تدور حول مقتله. ثم قُبل في المدرسة بعد ثمانية أشهر من العمل والإعداد... وأعاد تكوين رابطة الطلاب التي كان والده سنداً لها. كانت المنحة التي فاز بها تقدر بمائتين وثمانين فرنكاً. كان عليه أن يتخذ من الحمص غذاء له، وكان ارتداء الطربوش والسروال إجبارياً.

وما كاد العام الدراسي ينتهي، حتى انتخب رشيد رئيساً للرابطة بالأكثرية الساحقة؛ فصادر رجال الشرطة في غيابه الصندوق والأوراق ولكن طلاب المدرستين العربيتين الأخريين انضموا للحركة، ونظم إضراب في تلمسان طرد على أثره عدد كبير من الطلاب. ثم اضطر الحاكم لإصدار قرار يعترف فيه برابطات الطلاب، واستدعي رشيد من قبل شرطة الاستعلامات العامة، ثم من قبل القاضي الذي رجاه باسم الفقيد الذي عرفه جيداً أن ينصرف للدراسة «الوسيلة الوحيدة للعمل من أجل الوطن»... ورسب رشيد في الامتحان الانتقالي.

لم يكن سي مختار العجوز، وهو صديق آخر للفقيد، ينتظر إلا هذه النهاية ليتدخل؛ فأدخل رشيداً معلماً في مدرسة عربية خاصة، فطرده الحاكم منها خلال السنة. وعند ذلك وجد له سي مختار عملاً في صيدلية، فلم يلبث أن طُرد منها في نهاية الشهر لأنه رفض أن يرتدي الطربوش بالاضافة إلى الصدرية البيضاء التي تجعله يبدو بمظهر لائق أمام الزبائن.

وأطل رشيد على عامه الثامن عشر، ورأى نفسه طريداً حتى من الصيدلية، فوضع في جيبه قطعة الذهب الوحيدة التي بقيت للأسرة والتي كانت أمه تخيطها في حزامها، وقاد عائشة عند أقرباء لها، وبقيت الأم المسكينة تحت رعايتهم حتى نهاية حياتها... وضاق رشيد بالبطالة فانصرف إلى التمثيل المسرحي.

ومرت أشهر ثلاثة، واستقبل رشيد في منزله مخلوقة ضائعة أغواها المنتج الذي كانت تعمل عنده. كان المسرح العربي يعاني نقصاً كبيراً في الممثلات، فعزم رشيد على انتشال أم العز من الدعارة ليقدمها نجمة لفرقته المبتدئة. كان تعليم الشابة يقتضيه الليالي الطوال. ولم يتأخر سي مختار عن مد يد العون، فأحضر لهما حاكياً عتيقاً، وراح يزودهما بنصائحه الثمينة. وما هي إلا فترة وجيزة حتى شقت الفرقة طريقها إلى قلب الجمهور. لم يكن المتفرج العادي يستطيع أن يعرف بأنه يؤمن الرزق لخليلة إنسان خارج عن القانون، (لم يكن رشيد قد تقدم إلى مجلس تدقيق الشخصية). وكان رجال الشرطة يظهرون منتهى الكياسة كلما وقعت أبصارهم على السمراء الفاتنة أم العز، التي حملت اسم كلثوم كما حملته أكثر ممثلات وراقصات تلك الفترة. كانت مغنية شهيرة بهذا الاسم تبدأ حياتها الفنية في مصر. وعندما كانت أم العز تتلوى بقامتها، كانت عمامات كثيرة تنقلب بأقصى سرعة، وكان كل ما ادخره حجاج المستقبل بقبضات مرتعشة بالرغم من رشيد الذي قرر أن يلتحق بالخدمة العسكرية، واقتيد إلى تونس بعد خمسة عشر يوماً من السجن الانفرادي. ثم هرب من الخدمة في أوائل شهر رمضان، وعاد عن طريق طرابلس الغرب، وترك أم العز إلى غير رجعة هذه المرة، وذلك بعد مشهد حاسم خلاصته أن أحد الأغوات أمره بشراء زجاجة من العرق بينما كان يرافق «النجمة»، فاذا هو يقذف بكل الأسطوانات المفضلة على رأسها، بينما كان الوجيه يطلق ساقيه للفرار... وأسرع سي مختار لنجدة فتاه... كان رشيد يفكر بالذهاب إلى فرنسا، بعد أن شفي من المسرح، عندما قابل مجهولة المستشفى، ولم يعمل بعد ذلك شيئاً سوى التنقل من مدينة إلى أخرى. ومرة أخرى تحطمت أحلامه على الصخرة، ووجد نفسه وحيداً في منزله دون أية أخبار من أم سي مختار التي لم يرها منذ رحلة البحر الأحمر التي عادا منها معاً. لقد انسلَّ منه الشيخ فجأة في عنابة دون اشارة ولا سبب، دون أن يذكر بأنه سيختفي، كما توارى الأصدقاء الثلاثة الذين افترق عنهم بعد مغادرتهم الورشة.

وتهاوى رشيد وراء النافذة المفتوحة، وسقط وجهاً لوجه أمام جُعل ذاهب إلى مأواه بعد انقضاء الليل... وزمجر رشيد زَمجَرة ضعيفة، فشبك الجُعَلُ استطالاته دلالة الخضوع. كانت السماء ما تزال قاتمة: «ربما استطعت أن أحصل على قليل من المال من البيت المتهدم، ولكن أين أجد السمسار الذي لا يدمرني بحجة الانتقام لأمي؟...» وفي اليوم الخامس زاغ عن الدعوات، ولم يترك فرصة لأحد يلقي عليه سؤالاً، كما ابتعد عن جميع



الثرثارين الذين كانوا يتهافتون عليه، يعانقونه كما لو كان عائداً من الحرب، أو من انتخابات مظفرة. وولج في الممر؛ كان المقهى الذي استوقفه يقبع في نهاية زقاق مرصوف، على قيد خطوات من المدرسة. كان مستودعاً مقسوماً إلى قسمين بحاجز خشبي يفصل بين الشاربين والمدخنين. وفي غمرة السحب النتنة المتصاعدة إلى السقف عثر رشيد على هارب آخر من الخدمة العسكرية، وعلى طالب أمام كتبه، ثم على لاعبين يمسكون بالورق بعيداً عنهم، متظاهرين باللامبالاة والتعب...

كان في مدخل الفندق (إن صح التعبير) منضدة صغيرة انتزعت من رشيد قراره الحاسم. كان هو الرجل الذي يمد الأكياس بيده، ويتربع أمام المنضدة، شاب في العشرين ذو حجم رياضي ضخم، وجبهة ملأى بالحفر والنتوءات؛ كان رشيد يظنه في مستشفى المجاذيب.

– لقد هربت منهم مرة أخرى، أخي عبدالله!

وعانق رشيد صاحب المقهى الذي غادر بدوره منضدته ورافقه إلى ما وراء الحاجز، وهو يدور حول المكان بصورة مصطنعة لتحويل أنظار اللاعبين. كانت الشمس تُقرض ذَنب هر انزلق في زاوية قرب المدخنين العصاة وتمدد الهر غاضباً أمام حذاء عبدالله المدبب. ورأى نفسه مدفوعاً في وسط الرجال الثلاثة الذين يرتدون ثياباً كحلية اللون. ومد الرجل ذو الأنف المهشم «الجوزة» التي كان أنبوبها مصنوعاً من قصبة خضراء. كان عبدالله والهر يغمغمان هانئين. وابتسم عبدالله بينه وبين نفسه، وأسقطت كرة بنية اللون، وأحدثت صوتاً باهتاً وهي تسقط كحزمة من النور على المنضدة، بين ورقة متفتحة، تحت حبات الزيتون وزنبقة في زجاجة عصير الليمون، تترنح في كل الجهات حيث اتجهت الجوزة.

كان على «المعلم» حسب العُرف السائد، أن يفتتح الجلسة ويقدم الزوار الجدد وكان يبدو عليه أنه في نشقته الأربعين أو الخمسين. وألقى عبدالله برصانته، وجثته الضخمة نظرة إلى القصبة الخضراء، ومسها بطرف كمه، ولكنه تريث في أشعالها ريثما أفرغ إبريق الشاي، وغَرَف من صندوق البلح غَرفة، بينما راح الرجل الذي يحمل أنف الملاكم يستل مديته، ويقطع قطعة من مادة خضراء بحجم نصف بزرة التمر، ثم يفتتها إلى ذرات لزجة بصبر وأناة يشوبهما القرف والكآبة، مما جعل رشيداً يرتجف (رغم أنه لم يكن مبتدئاً بمعنى الكلمة) وانضم عبدالله أخيراً إلى العمل، فمزج التبغ الأشقر بالبقايا الخضراء التي كانت تبدو رمادية تحت أشعة الشمس التي لاحت من جديد.

وقال الملاكم:

– هيئوا المظلات، ريثما ينتهي «المعلم» من صنع المزيج، وراح يجس حبات الحشيش المسحوقة، المكثفة، المسخنة على قطعة من الآجر، قبل أن تقدم في قطع بوزن غرام واحد، ملفوفة بالورق الشفاف...

– إنه سم عقرب زعاف صنع خصيصاً لقلوبنا السوداء!

وقدَّم الملاكم قدحاً مُلىء حتى نصفه بالماء. فوضعه عبدالله على نهاية المقعد. وما إن انتهى حشو «الجوزة» حتى غمس الملاكم القصبة في الماء تحت بصر رشيد المروَّع الذي لم يكن قد دخن قط إلا السجاير الملفوفة أو «القنابل» كما كان الرفاق المجربون يسمونها في المدرسة. أما هذه فشيء آخر... إنها «المدفع»... ووضع الملاكم شفتيه بين حافة القدح، وأصابعه المرصوصة على موقد «الجوزة»، ثم عرَّضها لعود الكبريت المشتعل الذي كان عبدالله يدير لهبه على سطح التبغ كله، فما يلبث أن يحترق في نقط سوداء متصلبة، ودعي رشيد لافتتاح «الجلسة» حسب العادة، وأخذ نشقة طويلة دون خوف، تاركاً النقاط السوداء تحترق وتئز؛ أما الماء فلم يلبث أن علته الصفرة، وأخذ يقرقر، ودارت «الجوزة» بعدئذ إلى عبدالله، ثم إلى الملاكم، فالرجلين الآخرين اللذين لاحا لرشيد بأسنانهما المعدنية، وقميصيهما المخططين، وكمية الدخان التي ابتلعاها، كفرسان قضية قوامها الزهد بالجنس البشري. والتصق الذي كان يبدو أكبرهم سناً، اذا أُخذ بعين الاعتبار شعره الأبيض، رغم أسنانه البيضاء، التصق بكل قفصه الصدري بآلته الموسيقية «البانجو»، وأرسل صوتاً لا طابع له:

يا لابسة البابوج
يا لابسة البابوج
خرجت من الحمام
لابسة البابوج.

وتحرر المغني ببراعة من موسيقاه، عندما تذكر امرأة من المدينة تلبس قبقاباً. وتخيل عبدالله نفسه بعيداً عن فئة اللصوص الذين يديريون كازينو قسنطينة بعد اعلان الاستقلال. وانتظر حتى نهاية الأغنية ليعرض أفكاراً استوحاها على ما يبدو من كاهن كان يخدمه في حداثته:

«... إن الهزال يأخذني من معصميَّ حتى بداية رقبتي، بينما يظل جسمي جسم رجل متين البنيان. إنه ليس أثر الخمر ولا «الكيف». انني آكل كما يأكل أربعة وأصاب مع ذلك بالهزال، ولكي أفرض على نفسي تنسُّم الهواء أراني أحذو حذو السياج، فأنهض للنزهة منذ الصباح الباكر. شيء لا يكاد يصدق... إن تسلقي للمرتفعات يزيد في انحطاط هيكلي العظمي رغم كل مزاياه الصحية. لقد قال لي الطبيب: إن رئتيك سليمتان. ولكني موقن بأني سأموت اختناقاً كما يموت السمك... إني أحمل نفسي على الشيخوخة والعجز، وتنتابني الأفكار السود أكثر فأكثر... وكلما أحسست بالقوة أراني أنحدر بعدها إلى مستوىً أكثر انخفاضاً...».

وقاطعه رشيد:

– أما أنا فإن ما يحضرني الآن هو تلك المشاحنات التي كانت تحدث أيام طفولتي.

وقوطع رشيد؛ كان المغني العجوز قد بحَّ صوته وهو يتكلم عن شيء آخر:

– لو أحصيت سنواتي لكان ينبغي أن أحسب في عداد الأموات من زمن بعيد. لقد تسجلت في سجل الأحوال المدنية بعد ولادتي بحرب واحدة، عندما وضعت الحكومة في رأسها اعتبارنا مواطنين في الخير وفي الشر... كنت رسمياً أباً لأربعة أطفال مسجلين في دفتر عائلة ذكروا فيه أني مزارع. وكان كل ما زرعته في حياتي أرضاً من القنب. وَوَشَى بي، فبعت الأرض، وأصبحت بائعاً للقُضامة، ثم عدت إلى القنّب بسبب الهموم؛ ولكن لم يكن قد بقي عندي أرض ولا ولد. ماذا عساني أذكر؟ أأذكر ابنتي المطلقة التي تتسكع هنا وهناك؟ أأذكر ابنتي الأخرى التي ترعى أطفال قائد لم يستطع تزويدي برخصة للصيد؟ أم ابني الصغير الذي يعمل الآن في مطعم بتونس، متظاهراً بأنه من نابولي؟ أما ابني الأكبر، سندي الوحيد، فقد مات بحُمّى التيفوئيد. واتخذت أخيراً زوجة ثانية. ولم تلبث الأولى أن ماتت وهي في عنفوان الشباب...



9

في مدرسة حيّنا، ضربت السيدة كليمانت المديرة «مولوداً» بالمثلث على رأسه، فاستل زعيمنا بوزامبو مديته، وقدمها لمولود، ولكن هذا ألقى بها عند قدمي المديرة دون أن يثأر لنفسه.

كان مولود يبكي.

وكانت المدرسة كلها إلى جانب بوزامبو الذي كان يقضي في كل صف سنتين.

كان مولود يبكي. فما كان من ماريو، شقيق مارك وهنري العاشقين معاً لابنة أخت السيدة كليمانت، إلا أن ضربه بالمظلة على رقبته. لم أعد أخشى مولوداً وقذفت بلوحي الحجري في وجهه.

وَهُرِعَ السيد كليمانت إلى الصف على أطرافه الأربعة فأمسك بالزبير، شقيق مولود الأكبر، من أذنيه ورفعه كالأرنب، فتدحرجنا أرضاً من شدة الضحك احتراماً للسيد كليمانت. كان السيد كليمانت يضحك، وكان مولود يبكي. واستعاد بوزامبو مديته تحت سمع السيد كليمانت وبصره فاكتفى المدير بالغضب.

أخرج شريف، ابن عم بوزامبو، كتاب القواعد، وراح يقرأ:

قائد قُوَّاد

صديق أصدقاء.

وصاحت السيدة كليمانت:

– إلى اللوح يا رشيد! وأنت يا مولود، خذ امتعتك... وانصرفْ...

كانَت الذكريات تتوالى في غيبوبة نشقات «الكيف». ولم يعد رشيد يسمع صوته. كان يسبح في هدوء الذاكرة العميق ساخراً، لا مبالياً. كانت الكلمات تنطلق كالأسهم النارية التي كان هو نفسه أول من تأخذه الدهشة منها، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعيها حتى النهاية. كان يتكلم بسرعة؛ يتلعثم، ثم يصحح خطأه حسب المصادفة دون أن يأبه لذلك بسهولة مذهلة، ترمي به بعيداً عن المكان. كانت الأحلام السديمية تتلاحق، فيتابعها الواحد تلوَ الآخر؛ لم تكن مادتها الدفينة لتجري مع الكلمات، بل كانت تدفعها، تدمغها، تعطيها لوناً وقواماً. كان يرفع نظارتيه الداكنتين من حين لآخر ليستريح قليلاً، ثم يعود فجأة، وهو يجول ببصره نصفَ منتصر، نصفَ مطارد، دون أن يردَّ على النظرات، على الابتسامات، على صمت الملاكم الحانق. كانت الكلمات تزداد سرعة وتدفقاً على شفتيه، وصوته يُفْرِطُ في القوة ممتلئاً بالصيحات، كأنما يتوجه بصياحه إلى مَشاكس عنيد، ربما كان هو نفسه... نعم، لم يكن رشيد يسمع صوته.

كان لبوزامبو أخ أقوى منه، وكان فخر قسنطينة. وهزّ عبدالله رأسه موافقاً، وأضاف:

– لقد قُتلَ أثناء الحرب...

– كان الشقيقان غالباً ما يتشاجران؛ وكأنَّ الشجارَ قدَرٌ لهما... كأنما قد كُتبَ لأحدهما أن يموت في الحرب... كانا يقطنان على مقربَة من الحي المشبوه. وفي ذات يوم فاجأتهما أمهما مع المجنونة. لم يكن في وسع أحد أن يقصيها عن الحي.

واعترضه عبدالله:

– لم تكن على هذا القدر من الجنون. كانت تلك طريقتها في اجتناب الرقَعاء. إني أعرف أشخاصاً هاموا في حبها...

وأكمل رشيد:

– حسناً؛ لقد فهمت الأم على ما يبدو لعبة المجنونة، ورأت ولديها مأخوذين، فضاعفت رعايتها لهم. كانت تطلق في أرجاء الحي أن فرحات (الذي كان الرفاق يلقبونه بوزامبو)، وعيسى هما بمنزلة عيني، بينما كان كل منهما يدبر المكائد للآخر. لقد اختفت المجنونة ولكن الشقيقين لم ينقطعا عن توجيه التهديد والوعيد لبعضهما، وعن اصطياد المناسبات للشجار، وأخيراً لم يلبثا أن تشاجرا، لأن بوزامبو لم يكن يعترف لنفسه بالهزيمة، وكان عيسى أكبر جسماً منه... ولكن أمهما كانت تسهر عليهما. لقدع ملت ما بوسعها لالهائهما عن المجنونة، فاهتمت بلباسهما، وسمحت لبوزامبو بالسفر إلى مدينة الجزائر ليكون قارعاً للطبل في سيارة مجموعة من الموسيقيين... وكان ذلك دون جدوى... لقد زرع الشقيقان الرعب في الحي بأكمله، فباعا العرَق الذي كان أبوهما يخبئه بانتظار أعياد اليهود، وتشاجرا من أجل المال. وأخيراً كف الأب عن تجارته، وهرب إلى مدينة أخرى، ولم تلبث حماته أن لحقت به... ولكن زوجته المسكينة آثرت البقاء مع أولادها، سواء أكانا من قطاع الطرق، أو لم يكونا... وحينئذ بدأ الجنون يأخذ طريقه اليها... كانت تريد تزويجهما على ما يبدو من إبنة إحدى الجارات، دون أن تستشير تلك الجارة ولا ابنتها، وحتى دون أن تختار نهائياً بين ثمرتي أحشائها، لأن كِلا الولدين كانا غريبي الأطوار، ولم يكونا في سن تؤهلهما للزواج فلم يكن بوزامبو قد ترك المدرسة إلا منذ عهد قريب... لقد فقدت الأم صوابها حقاً. وفي تلك الأثناء تلاقى الشقيقان... واشتبكا في شجار كما لو أن كلا منهما كان يريد أن يقتل الآخر في مكانه. وأمسك كل منهما بالآخر على بعد، يقذفه بالحجارة، في دهليز «المحل العمومي» لقد أمسكا ببعضهما! أمام «وردة بليدة» أكثر تلك الأماكن ازدحاماً. لم يصب عيسى إلا بثقب في جبهته... كان الدم يسيل من منخريه. أما بوزامبو فقد أصيب بعدة ثقوب، في جبهته، وفي وجهه، ولكن دمه لم ينزف كثيراً. كان يهجم وعيناه مغمضتان، يلتقط قطعاً من القرميد القديم كان قد ادخرها لهذا الغرض، ثم يرمي بهذه القطع بكل قوته، لا يتوقف إلا ريثما يسدد الضربة. كانت الضربات تنطلق من ذاتها كسلاح آلي... ضربتان... أو ثلاث... الواحدة تلو الأخرى. لم يعد عيسى يلقي من جهته بالحجارة، ولكنه كان يجمع بسرعة فائقة القذائف التي كان يرسلها له بوزامبو، ويعيدها اليه. كان الشقيقان يتحولان قفراً من طرف لآخر كالذباب... كانا يغطيان وجهيهما أو رأسيهما لدى كل ضربة. وكان الدم يسيل على بوابيج البغايا، وفي صحاف المتسولين، وعلى طول رزم السجائر المهربة التي تباع خلسة هناك... ثم راح الشقيقان ينتحبان كانا يبكيان شجارهما الذي لا نهاية له. وأخذت القوادات في ثيابهن الخفيفة يقدمن لهما النصائح. وكان المارة يؤيدون تلك النصائح بأمثال وحكم يلقونها بالمناسبة. كانت مجموعات من الأطفال يمسك بعضهم بأيدي البعض الآخر يلتقطون قطع القرميد للمتشاجرين، وهم على أتم استعداد لكي يحذوا حذوهما. ثم وصلت الأم، وأخذت تصرخ وهي تشق طريقها بين النساء، فألقى قسم كبير من المتفرجين بأنفسهم في الخمارات، وتراجع بوزامبو وشقيقه، وهما يواصلان الشجار، بينما شرعت الأم تجمع قطع القرميد التي تجدها في طريقها، وتخفيها في ثوبها وهي تتزحلق فوق بقع الدم...

يا لها من قصة محزنة! لم تكن تريد العودة إلى منزلها خشية أن تجد على عتبة المنزل جثة أحد ولديها... لم يتجرأ أي من المتفرجين على أن يمسك بالمتخاصمين؛ كان غريباً أن يعرف الجميع بأنهما هناك في مكان قريب، ملطخين بالدماء يقتتلان، أو يراقب كل منهما الآخر. وفي المساء ذاته، استخدم الأهل سلطتهم على الأولاد، فأبقتني أمي في المنزل. ولكني قفزت من على الجدار، عندما هبط الليل. وعثرت على الشقيقين... كانا يلعبان الورق في مكان غير بعيد عن أرض المعركة؛ لم يكونا يحاولان الغش في اللعب. ولكنهما على استعداد أن يمسك كل منهما بخناق الآخر فيما إذا سمحت له أدنى فرصة...

10

كان المغني العجوز قد بدأ يتكلم عن أشياء أخرى، وهو يميل على عبدالله، وكان الملاكم يخفض رأسه هادئاً، متهللاً، وعاود رشيداً إحساس قديم بأنه يسافر تحت الأرض، وربما أبعد من ذلك خلال سهوب من الغنى، واللاوعي، في الفترة التي كان يستطيع الحياة فيها مع الحشرات، وماء المرجل، والحجارة، والأشباح الخارجية، عندما كانت أفكاره ما تكاد ترتفع عن بساطة الحيوان... لم يكن يستطيع قط أن يفهم من طفولته إلا نُتفاً ضئيلة، مشتتة، حادة، أشبه بلمحات خاطفة من الجنان يجتاحها احتراق الساعات الكامل، مسبحة من القذائف المتأخرة تمسك بها السماء معلقة فوق الفرح المحرم أبداً، وترغمها على الاختباء في أعماق أضعف الكائنات، في أعماق الطفل الجاثم أبداً أمام نافذته، التائق أبداً إلى السطوع، الذي تتبعه لسعة الظل، الخائف من البقاء حبيس هذا العالم، بينما تمطر عوالم أخرى ليل نهار على رشيد، سواء أكان راقداً في مهد من خشب الحور، إلى جوار نوافذ صغيرة تتيح له التنفس، أم كان يخطو خطواته الأولى تحت سيل المطر... لم يكن رشيد قد سافر إبان طفولته كلها. كان يحمل السفر في دمه هو ابن البدو الرحل الذي ولد في وسط الدوار، مع الاحساس بالحرية، بالسمو المغرق في التأمل. كانت الأسرار تنهال عليه، ولم يكن رشيد يجهل قط أن الأرض تمر كحلم حين يستطيع البشر أن يعيشوا في الطائرة. كان أنفه يشمخ أبداً إلى الأعلى، لقد صمم منطاده وهو في عامه الرابع أو الخامس، رغم افتضاح الأسرار التي كان يطردها عنها وحيداً، دون أن يشرح لنفسه شيئاً، وهو يبتلع حكايات أمه كمنومات لذيذة دون اهتمام.

لم يكن يضع فوق رأسه شيئاً. أما حذاؤه فكان يبقى أغلب الأحيان على العتبة. وكان اسم الله نفسه، الذي شاء أن يرمّل عائشة، يرقد مع الرصاصات الضائعة على السطح... لم يكن رشيد، حين بلغ سن المراهقة، ليتذكر شيئاً عن طفولته الأولى. كان يحس بالأيام الخالية الحية كندوب جرح فقط. كان رشيد الحالي لا يبدو له إلا كطبقة كثيفة من النبات الطفيلي يخنق «الرشيد» الآخر الضئيل الذي كان يحيا في الفردوس، والذي فقد وهو ما يزال في ميعة الطفولة... لم يكن ؟ وهو البدوي في الثلاثين ؟ يؤمن إلا بظله. كان يخيل إليه أن بقايا السنين التي سيحياها ستمتص ذات يوم، ستغيب في الفراغ، وتضرب فوق ماضيه الفج سداً كثيفاً. كان يحس نفسه يدور في حلقة، دون أن يبتعد عن نقطة الانطلاق التي يحددها بشكل غامض بين قفزته من المهد وتشرده حول أالصخرةؤ؛ ولم تكن الحلقة إلا نزهة قسرية أوشكت أن تضيعه، فإذا هو يعود منها يتلمس طريقه، ليس هو فقط، المراهق العائد إلى الرشد... لا، ولكن شبحه الذي نذر لهذا الطريق المظلم الجديد بالرثاء، شبحه الذي يتحطم على ماض مشحون بالأساطير، على شروق الشمس، على الطفولة الأولى التي ما زال يتجه نحوها راكعاً، وهو يردد كلمات الجنس البشري وحركاته بسيولة وانسياب لا يلامسان شيئاً من صميمه، كبزرة على وشك الانبات تحت سماوات أخرى، ككتلة تائهة مزودة بذكريات صلبة لا يستطيع شيء تعكيرها، تشعر أبداً بوجودها المادي يهرب ويتلاشى، كعشب، أو كماء.

وفي حوالي الخامسة أو السادسة كان يتذكر بأنه تبنَّى الحيوية القاتمة لجدار من اللبن كان يعانقه، ويوجه إليه مناجاة اليتيم. كان الجدار يؤلف جزءاً من البوّابة المسدودة. كان عليه أن يزحف في لسع الحر للوصول إليه، ثم يرفع جسمه وهو يجهش بالبكاء. ولكن الجدار كان هناك كان رشيد يعض التراب، يتحدى المارة بضحكات عالية، ولكن المارة لم يكونوا يستطيعون الضحك، ولم يكن في وسعهم أن يعضوا الغبار، ولا أن يجروا وراء الحرادي، على ركبهم وراحاتهم، دون أن ييأسوا من اللحاق بها... وعلى مر السنين... كانت شباك الأوهام القذرة تتهاوى أمام الطفل؛ لم يعد يحمل من الحيوان إلا انحطاطه اليومي، وإلا رقاد الثعالب، والنسيان... كان يطفو مجهولاً، قاسياً. كانت المدرسة أشد حزناً من الجدار. وها هو رشيد في المدينة الآن؛ ولكن المدينة تبدو لعينيه أقل اتساعاً ورحابة من الجدار. لقد ضاعت الطفولة إلى الأبد. لم يعد العالم يكبر في عينيه، بل ظل مجرد رؤية كلية قاسية.

كان حلمه يفقد من عتمته؛ وكان دماغه ينطفئ، وهو يكتشف هذا العدد من الملاجئ المنهارة. وكان لسانه يرفض أن يطحن الأفكار الحية التي كان رشيد يشعر بها في حنق تبدو فيه الأشكال النهائية للعالم تثقل على رأسه ثقَل القرون.

11

لم يعد رشيد يغادر الفندق، ولا الشرفة، ولا فسحة الفسيفساء والحديد المطرَّق. لم يعد يغادر المجموعة المخيفة، والأريكة، والأحلام الخاصة. كانت الزمرة عشرة أو عشرين رجلاً من كل الأعمار، يحلمون في صمت، لا يكاد الواحد منهم يعرف الآخر، قد انتثروا على



طول الشرفة، في أحضان الغيبوبة والدُّوار، على مشارف الصخر المطل على الأمواج، في أحد التجاويف التي اتخذوها ملجأ يلتقون فيه ليل نهار، وسط رائحة الحَبَق، والنعناع، وطَعْم الشاي المتعفن، وأشجار الأرز، واللقالق، وتكتكة الصراصير الورعة التي تذكرك بمبرقة مورس، وصراخ نَزْعَهم الهادئ بلا جدوى.

كان رشيد قد اكتشف الفندق منذ زمن بعيد. وها هوذا يصبح رئيساً له. بعد أن هام على وجهه من مدينة إلى أخرى. لم يعد يغادر قسنطينة. وربما مات يوماً على تلك الشرفة، في سحابة من الحشيش المحرَّم. كان منذ حداثته يلاحظ تلك الرؤوس اليابسة لسكان المغارة، ويتنصت إلى الموسيقى، ويتوقف دون أن يلفت إليه الأنظار أمام الفندق، مع قليل من المارة ينحنون كالأشجار، مأخوذين بأصداء الطبل القاصم الذي كانت شدته ترسل شرارة كهربائية كرعد مروّض يغطي حبات البَرَد الحارة، وصوت العود المتدرج الصعود، وثقَل الدموع الداخلية السريعة التي كان رشيد يحسها تنهمر خفية، وهو كالنبات اليقظ، بينما كان يرتفع من نقطة أخرى من الهوة لحن ناي كأنه نسيمُ صيف ذَكَر، أو ليلة تموج بالنغم، وتضيع كذبابة في فنجان قهوة. كان رشيد منذ طفولته يقدّر أن هذا اللحن ينبعث من جماعة سرية، حشرت نفسها في مكان هو نصف مقبرة، ونصف سجن، رغم أنه لم يسمع قط بزمرة القَتَلة. كان، ككل الأطفال، يعرف بأن هُواة الموسيقى الذين يجتمعون في الفندق كانوا يدخنون شيئاً آخر غير التبغ، شيئاً يجعلهم يفقدون صوابهم، ولكن بطريقة تختلف عن سكارى الخمر... ثم أتيح له مع الأيام أن يرى من فرجة الباب المشقوق زاوية الشرفة، وحظيرة الطيور...

أما الآن فقد تأكد له بأنه أصبح أسيراً في هذا المكان كالعندليب، والكناري، اللذين يسمع صوتهما لدى مدخل الفندق؛ ولم يعد يخطر بباله أن يغادر هذا المكان. لقد حدث له ذلك حين عاد من عنابة، بعد الجريمة؛ وحين استجوب آنذاك ظن البعض، بل رددوا في قسنطينة بأن لرشيد كلمة في الموضوع، دون أن يكون شريكاً في الجرم؛ وكانوا ما يفتأون يحاولون التأكد من ذلك. كان يجيب: «لا شيء هناك... كان مجرد حادث فقط». أما الصحف فكانت تردد: إنها قضية غرامية. ولم يعد رشيد يذكر شيئاً عن ذلك، ولم يعد يريد أن يتطرق إلى هذا الموضوع. وكلما اشتدت أُلفته للفندق، كان كلامه يقل، كما كانت نظراته الكئيبة تغيم وتغور، وكانت أضلاعه ترتسم على قميص الجندي القديم الذي يرتديه، كما لو كان على جسمه، الذي راح يزداد جفافاً يوماً بعد يوم، أن يظهر هيكله العظمي، مجرد الهيكل العظمي للرجل القوي الذي كانه يوم من الأيام.

الفصل السادس

1

لقد حُكم على القاتل الذي يطلقون عليه بصورة عفوية «صديق رشيد»، حكم عليه بالسجن عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة. كانت مثل هذه الخواطر تدور في أذهان البعض دون أن يجهروا بذلك: «هناك جريمة ثالثة معلقة بين عيني رشيد. ألم يقتل أحدهم والده قبل ولادته؟ وها هو ذا أحد أصدقاء رشيد يرتكب جريمة أخرى... وإذا ما اعترضته حادثة ثالثة، فإن رشيداً سيقول كلمته».

هذا ما كانت تفكر به الكلاب السلوقية في قسنطينة، المدينة التي يلتهم سكانها أكبر كمية من القصص البوليسية، دون أن تضارعها في ذلك أية مدينة أخرى في العالم. كان سكان المدينة الذين يفكرون في أحوال رشيد هم آخر من يعيرهم اهتمامه. وحتى عندما أدلى بشهادته، عندما أحاطوا به لدى خروجه من المحكمة، لم يشتط أحد في مضايقته. لقد لمحه البعض يتبادل إشارة مع المتهم، ويوصل إليه بعض السجائر بواسطة المحامي، ولم يكن في ذلك شيء خارج عن المألوف. كان الصديق في السجن. لم يعد رشيد يبحث عن عمل، ولم يعد كذلك يغادر الفندق الذي ذهب إليه بعد فترة من العزلة، ظنها مفيدة له، في منزل والدته التي ماتت دون علمه، بينما كان يعمل «في مكان الجريمة» كما كان يروي الصحفيون. وهذا ما أضحك رشيداً. لقد عاد بعد ليلتين من وقوع الجريمة بقطار قسنطينة وحده، ثم أغلق دونه الباب في منزل أمه، ولم يخرج منه إلا في اليوم الخامس الذي توجه فيه إلى عبدالله...

أثار رشيد حفيظة الناس عليه. لقد استاؤوا منه عندما رأوه ينكر أسرته، ويلقي بنفسه بين «زمرة اللصوص» هو الذي لم يستطع أن يخطو أية خطوة في سبيل الثأر لأبيه الراحل الجليل، الذي كان اسمه فيما مضى مقروناً بالفضيحة، ولكن شهرته، نتيجة لموته الفاجعي، جعلت منه بطلاً أسطورياً. كان ذكره يتردد كفارس مغوار لقي مصرعه في ميعة الصبا بيد منافس أقل قدراً منه... لم يكن ذنب رشيد أنه أهمل البحث عن القاتل «الذي صرع أباه بطلقة من بندقية في مغارة»، ولكنه بالإضافة إلى ذلك أصبح صديقاً لقاتل آخر. وانغمس في الفسق والفجور، وانحطّ إلى مرتبة العمال اليدويين، ثم راح يتسكع عاطلاً عن العمل ليس له من غذاء إلا الحشيش.

لقد أصبح الآن «معلم الفندق» المنبوذ، المظفر في أمكنة سقوطه. كان الناس ساخطين لرؤية رشيد يختلط بطريدي العدالة بأولئك الذين لا مهنة لهم، ولا بيت، ولا هوية، أنصاف المجانين كعبدالله الخارج أبداً من مستشفى المجاذيب. لقد كان عبدالله أول من عقد الصلة مع رشيد في اليوم الخامس لعودته من «مسرح الجريمة» كما كان يقول الصحفيون.

2

وذات يوم جاء أحد الكتبة، متوحشاً، رثّ الهندام. كانت عليه سيماء كاتب العرائض؛ لقد اكتشف فندق عبدالله، ولكن هذا قدم نفسه إليه، واصطحبه إلى الفندق الآخر الذي استقر فيه رشيد بجهوده. وفي تلك الفترة كان رشيد يلازم «وكر التدخين»، ولا يغادره. لقد كلفه عبدالله بإدارته. كان العمل فيه بسيطاً للغاية يقتصر على إعداد «الجوزات»، وصب الشاي، واستلام الدراهم. ورأى الصحفي رشيداً وقد حَنَى ظهره في طرف الحانة، على شفا الهوّة. كانت المغارة قد أصبحت تزدان بالفسيفساء في أسفل الجدران على محيط الصالة كله، وكان للمدخنين البارزين، ورشيد الرئيس المغلق، وحدهم حق الدخول إلى الشرفة المحاطة بالحديد المطرق، المطلية حديثاً باللون



الأخضر، في جو الهوة الرمادي المضيء، بين الحمائم واللقالق، وأشجار الزيتون البرية، كان ذلك قلب المدينة، ذلك التجويف في الصخرة، ذلك الانعزال العنكبوتي على حافة الهوة، وكانت الشرفة تبدو كأرجوحة مثقلة بهياكل التقطت على فراش النهر المحتضر في غليان حجارة القبور المقذوفة بيأس تحت موجة الرومل النادرة، ذي القوى الضائعة أبداً، والذي لا يستقبل إلا أمطاراً ضحلة لا تَعِدُ بشيء، أشبه بالدم الذي ينقل إلى شيخ عجوز ترقد عظامه متيبسة...

لم يعد رشيد يغادر الفندق... لم يعد يترك مقدمته المصنوعة من الحديد المطرق، وجو الحبق العميق، وشجرات الأرز في نهاية تموز، والغروب على حافة الهوة. كان منخراه محشوين بالتبغ وكان الصحفي أو الكاتب يجلس محني الظهر أمام عود الزنبق الوحيد، قرب حظيرة الطيور في جو خانق من النعنع والزنبق. لم يعد رشيد يترك الشاي الأخضر الذي يسكب ببطء، ثم يسود وهو يبرد على قاع من السكر لا يذوب أبداً، لان ساعة الشاي بالنعنع تمتد طيلة النهار والليل في الشرفة المختومة حديثاً كضرب من التحدي، فوق الهوة التي تتأمل قسنطينة منها نهرها الجاف.

3

ودمدم رشيد: هناك مدينتان، لا أعرف إلا اثنتين، المدينة التي ولدت فيها، (ولم يكن يحتاج إلا أن يميل رأسه فوق أصيص الحبق، وأن ينحني قليلاً... فإذا ما بدا له أن يتوقف عن الحركة بين النبات الكثيف، وسلم الشرفة، ويتحول قليلاً عن هذا الصحفي الذي يفوق كاتب العرائض بؤساً وتعاسة، كان بإمكانه أن يتنشق هواء شجرات الأرز النقي التي سقطت أمامها جثة أبيه الذي قتل ببندقية الصيد الخاصة به)... وتابع رشيد: المدينة التي ولدت فيها، هنا، فوق الأحراج التي كان المجرم...

واعترض الكاتب:

– وماذا عن الجريمة الأخرى؟ لا ترجع بي بعيداً إلى الوراء!...

– هناك مدينتان عزيزتان علي، المدينة التي ولدت فيها...

وسحب الكاتب «الجوزة» بعيداً.

– والمدينة التي حرمت فيها النوم، على ضفاف النهر الآخر، هناك في السهل، مع اللص العجوز الذي كان يبحث عن ابنته، والذي لاقى حتفه...

– لاقى حتفه؟

– نعم، قتله زنجي من قبيلتنا. كان سي مختار قد اختطف ابنته، ابنته الحقيقية؛ ولكن الزنجي لم يكن يصدق أنها ابنته حقاً، فتربص به خلق الباب مع بندقيته...

– أجريمة ثالثة اذاً؟

– في ليلة عاصفة، وسط الأدغال، في منطقة متوحشة كهذه... أطلق الزنجي النار على اللص العجوز، ولكن الرعد كان يقصف بشدة، فمرت الطلقة النارية كالحلم... ولم أسمع شيئاً...

– وماذا عن مراد؟

4

كان رشيد قد تحول عن محدثه أكثر من ذي قبل. كان ينظف «جوزته» وهو يلقي بالرماد في الفضاء، ثم يقدم الكأس إلى الكاتب. وعاد إلى الكلام بعد فترة من الراحة، وأسند جبينه على حافة الشرفة الباردة وألقى ببصره حتى ضفة النهر المظلمة الهادئة، تحت قدم الصخرة... «إن القدر نفسه قد أراد أن تكون للمدينتين أطلالهما بجوارهما... وهيهات أن تتجاور في أي مكان آخر تلك المدينتان اللتان لا نظير لهما، مدينتان تُنْهَبان، ثم تُهْجَران، ثم تُبْنَيان من جديد الواحدة تلو الأخرى. وتنقسم كل منهما إلى قسمين دون أن تحس ذلك عن كثب... يا لهما من فارستين، أنهكهما الجري، وهما تتنازعان زعامة الولاية حيث تعتقد كل منهما أنها هي التي تعود إلى صباها، رغم الماضي السحيق، في انتفاضة بعث تعيدها من جديد كأمل باهر يفوق الوصف، كحلم يتمرد على الذاكرة، كجولة من جولات النوميديين التي أعقبتها المواكب الهائلة لأحفاد الرومان الذين انقضّوا من أعماق الليل... لأن المدينتين اللتين تمرستا بالحصار وعرفتا ويلاته جيلاً بعد جيل... فنسيتا طعم النوم... المدينتين اللتين تترقبان الهزيمة أبداً لا يمكن أن تفاجآ، أو تُغْلَبا...

5

لم يعد رشيد يميز بين ما يفكر به وما يقوله. ربما كان يتكلم أكثر مما ينبغي؟ ربما كان لا يعبر إلا عن زَبَد أفكاره! وقد عصر جبينه على حافة السلم الرطبة الباردة، كما لو كان يحاول أن يوقف شلالاً يتدفق في رأسه. ثم حشا «جوزته» وعاد إلى الكلام بهدوء، بلهجة واضحة، وبصره مثبت على قدم الصخرة: «لا أقصد بالأطلال بقايا الرومان... لا، لست أعني هذا النوع من الأطلال التي لم تتح لروح الجموع من الوقت إلا ريثما يدب فيها الصقيع فتتجمد، حافرة وداعها على الصخرة... ولكني أقصد الأنقاض الدقيقة العميقة التي تمد جذورها في الزمن، وتخلد على العصور... الأنقاض التي تجري مع الدم في عروقنا، والتي نحملها سراً دون أن نجد أبداً المكان واللحظة المناسبتين لرؤيتها... إنها أنقاض الحاضر التي لم يعرف أحد قدرها.

لقد سكنت المدينتين على التوالي، الصخرة أولاً ثم السهل حيث عرفت «سيرتا» و«هيبون»[2] المجد ثم السقوط الذي ألبس النساء والمدينتين الحداد الأبدي، حداد رافق حياتهما الطويلة القاسية كمدن أمهات، لم يعد للمهندسين فيهما من عمل. أما قاطعو الطريق فلم يكونوا يجرؤون على اتخاذهما مأوى لهما أكثر من ليلة واحدة. وهكذا وطد المجد والسقوط خلود الأطلال فوق قفزات المدن الجديدة التي هي أكثر حياة من تلك الأطلال، ولكنها مفصولة عن التاريخ، محرومة من سحر الطفولة، تغذي هيكلها الحديث لتستعيض به عن جلال التاريخ، وتظل الأطلال كالعرائس الميتة التي تثبت على الجدران فتبدو نسخها الحية شاحبة أمامها. إن الماضي السحيق يزدهر على حساب ما سيولد... هاتان المدينتان هما قسنطينة، وعنابة اللتان كانتا تبسطان سلطانهما على الدولة النوميدية القديمة التي حُولت الآن إلى مقاطعة فرنسية... روحان في نضال دائم لاسترداد سلطان نوميدية الزائل... قسنطينة تناضل من أجل سيرتا، وعنابة من أجل هيبون، كما لو كان رصيد الماضي قد تجمد في صفقة تبدو خاسرة. ذلك ما كان يقيم الدليل الوحيد لأبطال المستقبل... يكفي أن نضع الأجداد في المقدمة لنضع يدنا على مرحلة الظفر، مفتاح النصر الذي امتنع على «غوغورته»، البزرة التي لا يعتريها الفساد للدولة الممزقة بين قارتين، من الباب العالي، إلى قوس النصر[3]، نوميدية القديمة التي تعاقب عليها أحفاد الرومان، نوميدية التي لم يعد فرسانها قط من المجزرة، كما لم يعد الكورسيكيون الذين كانوا يسدون الطريق في وجه شارلمان... لم يفسح المجال للنوميديين، ولا للمغاربة أن يزرعوا ذريتهم في وطنهم بأمن وسلام. لقد تركوها لنا عذراء وسط صحراء معادية، بينما كان المستعمرون يتتابعون، أولئك الخاطبون الأدعياء بلا ألقاب، ولا حب...



6

وعليَّ، أنا رشيد، البدوي المكره على الاقامة الجبرية، أن أستشف الصورة التي لا تقهر للعذراء في أشد حالات ضيقها، العذراء التي هي دمي، ووطني؛ عليَّ أن أرى نوميدية تكبر تحت اسمها العربي الأول: الجزائر[4] نوميدية التي تركها غوغورته ميتة؛ وأنا اليتيم القديم، كان عليَّ أن أعيش من جديد، لسالامبو[5] جديدة من أسرتي التي تضم قائمة طويلة من الشهداء؛ كان عليّ أن أعيد نفس المحاولة التي أخفقت ألف مرة، لأحمل على عاتقي نهاية الكارثة، لأضع سالامبو التي تخصني، وأترك بدوري المحاولة، وأنا على يقين من أني تجرعت كأس المرارة حتى الثمالة، لأخفف العبء عن المجهول الذي سيأخذ مكاني... يا لي من بدوي جفت دماؤه قبل الأوان... كان عليَّ أن أولد في سيرتا، عاصمة النوميديين الزائلين، أحمل ظلَّ أب صرع قبل أن أرى النور، أنا الذي لم يكن ذلك الأب يحميني، ومع ذلك كان يبدو أني أعيش عالة عليه طوال الوقت الذي يستطيع تدريجياً أن يمنحني إياه. كنت أشعر بأني كالجرة المكسورة؛ أنقاض لا معنى لها انفصلت عن بناء أثري. كنت أفكر في سيرتا... كنت أرى فيها أجداداً أقرب من والدي إلى الدم المسفوح حول قدميّ، ينذرني بالغرق في كل خطوة أخطوها لأتجنب الانتقام له.

– أكنت تعرف القاتل؟

– كان أكبر من والدي سناً، وكان قريبة الأدنى... لم أكن أعرف ذلك يومَ تبعتُ قاطع الطريق العجوز إلى مدينة أخرى لم تلبث أن أغوتني... وفي عنابة اكتشفت المرأة المجهولة التي تلاعبت بمصيري... لقد كانت ابنته. لم أكن أعرف أيضاً أنها ستكون طالعي المشؤوم، أنها سالامبو التي ستعطي معنى للعذاب... تحت نخيل عنابة كانت تنتظرني أطلال أخرى حيث كان عليّ أن أزحف إليها كحردون أبْعِدَ عن جحره... كانت هي أيضاً تعيش بعيدة عن أبيها الذي تعرفت عليه متأخرة؛ لقد زوجها أشخاص غرباء من رجل قد يكون أخاها. كنت أغيب في أحلامي ليل نهار تحت شجرات النخيل قرب المرفأ، وأنا أحس وجودي الضعيف كانكسار مبهم يعيد الساق نحو جذره... كان الشعاع الذي بهرتني به يجعل آلامي اشد تبريحاً. نعم، كنت أذعن كحزمة من الحطب تحت المحرقة، وقد هيمنت تلك الساحرة على مصيري، لم تكن الا علامة ضياعي. كانت أملاً بالخلاص لا جدوى منه... لم أكن أقوى على الرضوخ لضوء النهار، كما لم أكن أستطيع العثور على نجمتي، لأنها فقدت اشراقها العذري... غسَقُ كوكب... كان ذلك كل جمالها المُعتم... كانت سالامبو أزيل بهاؤها، وعاشت مأساتها... كانت راهبة قد سُفح دمها... امرأةً متزوجة. لم أعرف مخلوقاً اقترب منها إلا فقدها... وهكذا تكاثر المنافسون وكان مراد أولهم...

وانتفض الكاتب، وترنح على كرسيه، وقد أخذ منه الدُّوار. ولكنه صَمَت. لقد جف حلقه بعد أن طرح هذا السؤال:

– وبعد؟

ولم يتحرك رشيد؛ وترك عود الثقاب يلذع إبهامه وهو يحترق حتى النهاية، ثم انبرى يتكلم في سحابة من الدخان:

– لحظة... لا تأخذني بالجرم المشهود!

ولكن الكاتب كان في غيبوبة من النشوة... في النيرفانا... كان يُغْفي ورأسه يتمايل، وهو يمسك بسترته الواسعة... وتابع رشيد بصوت هادئ، كما لو أنه يريد أن يُقنع نفسه بشيء معروف منذ أمد بعيد، ولكنَّ أحداً لا يصدقه:

– إن مراداً لم يرتكب جريمة. لم يكن مراد يحب سوزي.

7

كان الكاتب يُعِد نفسه لتسجيل الملاحظات منذ دخوله المكان، ولكنه لم يفعل. كان عمود من النور الساطع والدخان يغمره، وهو معلَّق إلى شفاه رشيد، المتبلد الحس، الذي لا يفارق «الجوزة»، وهو محني على الشرفة، وريح المساء تنفخ قميصه وتكوّره. كان رشيد يتأمل النهر في قرارة الهوة، نهر الرومل الذي لا يسيل فيه الماء أكثر من أسابيع معدودات طيلة السنة، ثم يتلاشى في الصخر دون بحيرة، ولا مصب؛ شلال كاذب قهرته ألغاز الأرض كرشيد، الصبي الوحيد الذي كان ميلاده شؤماً لأب قُتِلَ قبل أن يرى النور؛ كان الأب الذي يحمل بندقية الصيد، وكان جسده هو الذي عُثر عليه في المغارة. ووضعت أم رشيد بعد دفن الجثة بوقت قصير. لم تكن قد حسبت الساعات ولا الأيام، فقد كانت الزوجة الرابعة، المثقلة بالهموم، التي فوجئت بحملها، كما فوجئت بترملها، حتى أن رشيداً الذي فقد أمه بعد ذلك بعشرين عاماً لم يكن يعلم شيئاً عن الميتين اللذين تركاه أمام الهوة، الرجل ونهر الوادي الكبير تضعهما الهوة وجهاً لوجه، الواحد أمام الآخر... ما أشدَّ الشبه بينهما! رشيد الذي لم يسمع قط كلمة تعينه على كشف السر، ونهر الرومل الذي لم يتلق قط بواكير العاصفة تحت الصخر الذي ألقته فيه ولادته بعنف، وهي تبعده عن الأطلس، مسقط رأسه، نحو البحر، وهي تتلاعب بمجراه.

إن الوادي الكبير الهارب الذي يندفع إلى الساحل ليس إلا روملاً مزيفاً، انقلب إلى النهر الكبير، إلى الوادي الكبير؛ وظل الاسم تذكاراً للنهر الآخر المفقود: «كواديلكفير»، الذي لم يستطع المغاربة الذين طردوا من إسبانيا أن ينقلوه معهم؛ «كواديلكفير»، «الوادي الكبير» النهر المهجور في إسبانيا يجد نفسه وراء المضيق، ولكنه مغلوب هذه المرة، مطارد تحت الصخرة، كالمغاربة الذين طردوا من الأندلس، آباء رشيد، ورشيد العائد هو نفسه من غزو خاسر في المرفأ الذي كانت تنتظره فيه الكارثة المتمثلة بامرأة – نجمة الأندلسية – ابنة الفرنسية التي جعلت أربعة عشاق يتخاصمون فيما بينهم من أجلها، وكان ثلاثة منهم ينتمون إلى نفس القبيلة، أحفاد قبلوت الثلاثة.

كانت المرأة الفرنسية أم نجمة هي التي دمرت القبيلة بأغوائها الذكور الثلاثة الذين لم يكن أي منهم جديراً بالبقاء بعد دمار الندحور. أما الأخير، أكبر الثلاثة سناً، فقد طال به الانتظار أكثر من عشرين عاماً دون أن يعلن أن نجمة قد تكون ابنته، دون أن يذكر كيف ترك شريكه وقريبه في المغارة، أحد الذكرين الآخرين الذي لم يعد دمه المسفوح يجري إلا في رشيد... هذا الشريك، منافسه، الذي لم يكن يخرج قط دون بندقية، والذي لم يكن يبعدها عنه قيد أنملة حتى اليوم الذي خطف فيه كلاهما أم نجمة، وهما يعتقدان بأنهما ينتقمان بذلك للقريب الآخر، الثالث، سيدي أحمد، الذي سلبت منه الفرنسية في مدينة المياه من قبل التقي، العاشق الرابع، الذي يحمل كامل اسمه، وقد تزوج كامل نجمة، وها هو سي مختار يموت بدوره بعد أن اختطف نجمة. هل أغوى أبو رشيد الفرنسية قبل أن يقتل؟ هل اغتصب حق سي مختار في مخطوفته قبل أن يصرع في المغارة التي وضع الفرنسية فيها خاطفاها؟ أأبو رشيد أم سي مختار الذي مات في الشك... أي الاثنين – ترى – أعطى لنجمة الحياة في المغارة؟

من أجل أن يعرف رشيد ذلك صان حياة قاتل أبيه. ومات سي مختار دون أن يدري هو نفسه، ولن يعرف رشيداً مطلقاً إلى أي حد لم تكن نجمة، المرأة التي تمثلت فيها الكارثة، لم تكن هي ضريبة الدم المسفوح في المغارة!

نجمة التي قدر لها أن يتنازع الرجال لا حبها فحسب، بل أبوتها... كما لو كانت أمها الفرنسية قد ألقت بنفسها في لحظة نسيان، ومن دون خجل، بين أحضان كثيرة، أو أنها لم تستطع أن تختار بين ذكور أربعة عندما تقدموا اليها مثنى مثنى، أو أنها لم تستطع أن تفاضل حتى بين الاثنين الأخيرين اللذين خطفاها، وحكما عليها بهذا المصير؛ مصير الزهرة التي لا يمكن استنشاقها، الزهرة التي هددت حتى أعماق جذورها وأدقها... ذلك هو شأن الرومل الذي خانته قوته حينما انصب شلالاً هادراً، فوجد الخلاص في مجرى آخر غير مجراه؛ وكما يصب الرومل الذي خانه اندفاعه في البحر عن طريق الوادي الكبير، تذكار النهر المفقود في إسبانيا، الرومل المزيف الهارب من قدره، ومن حوضه الجاف، هكذا انتُزع أبو رشيد الذي قتل في مغارة عرسه من جسد خليلته الحار... انتزعه منافسه، وأدنى أقربائه سي مختار الذي تزوج الخليلة سراً، وحينئذ ولدت له نجمة، نجمة الدم المنبثق من القتل ليمنع الثأر، نجمة التي لم يستطع أي زوج أن يروضها، نجمة الغولة ذات الدم القاتم كدم الزنجي الذي قتل سي مختار، الغولة التي ماتت جوعاً بعد أن أكلت أشقاءها الثلاثة (فإن مراداً الذي خطبت إليه سراً، ثم الأخضر الذي أحبته كانا ابني سيدي أحمد خاطف أمها الأول الذي حل محله التقي، أبو كامل؛ وتزوج كامل نجمة فلم تلبث أن هجرته دون طلاق لتبقى حبيسة في الندحور بعد موت سي مختار الذي قادها إليه مع رشيد، بعد الحج المزيف إلى مكة، خلال الاختطاف النهائي الذي عاد منه رشيد وحده)، نجمة، قطرة الماء العكرة، التي قادت رشيداً خارج صخرته، وجذبته نحو البحر، إلى عنابة، التي كانت قد تزوجت فيها... وكما مات والد رشيد عندما جاء إلى الدنيا، كانت نجمة قد أصبحت زوجة لكامل عندما وصل إلى المرفأ... وفي هذا المساء، في الشرفة، كان شبح محنياً على الهوة برفقة كاتب ما برح يصغي إليه منذ الظهر. لم يكن هذا الشبح إلا رشيداً دون بندقية، ودون امرأة... إنه لم يعد يحسن شيئاً إلا أن يمسك بالجوزة، رشيد المزيف الذي جاء إلى الدنيا في وقت متأخر بعد موت أبيه، كما يكمل الوادي الكبير شبح الرومل وجفافه، دون أن يعيد إليه قوته المندحرة، في مكان غير بعيد من المغارة، مغارة العرس التي خلطت فيها الفرنسية عشاقها.

8

بين باب الفندق المفتوح الذي لا تسمع فيه جلبة المستهترين المحتدمة، بل الانزلاق العاجي لأحجار الدومينو، وبين سلم الشرفة ذات البلاط المغسول حديثاً، كان الغسق الصيفي يقترب. إن أبخرة الظهيرة المهلكة التي تشتد توهجاً يوماً عن يوم في شهر حزيران تستمر بكل وطأتها، رغم غسل المكان بالمياه. إنها ليست إلا أبخرة النعناع والزنبق. إن الاستئثار بمكان في الشرفة مقصور على المدخنين فقط، المدخنين الذين سبقوا رشيداً إلى اختيار مكانهم في الخمارة، وراحوا يقتربون يوماً بعد يوم من حظيرة الطيور، وأصيص الحبق، واحتلوا في النهاية فسحة الفسيفساء، والحديد المطرق، والبلاط الجديد اللماع، وحصيرة القش الطويلة، وسهرات الشرفة مع سكان الحظيرة الواسعة، تلك الطيور التي تستيقظ على أنغام العود (فيرسل الكناري ألحانه على نفس الإيقاع تقريباً، إيقاع المسوسين الذين اتخذوا مكانهم فوق الهوة السديمية التي تجتازها ببطء أسراب اللقلق؛ كان رشيد يلجأ فيما مضى إلى ساحرة يهودية يبيعها بيض اللقلق ليؤمن بعض قوته؛ كان يسرق البيض من أعالي شجرة الحور التي ترى من الشرفة بقوامها السامق في الفضاء، بعيداً عن شجرات الأرز التي زرعها على شكل حرس الشرف أول مجلس بلدي للمدينة المحاصرة).

كانت أسراب الحمام تعشش على سفح الصخرة دون أن تستقر أبداً في الأزقة، تمر مروراً خاطفاً في ريبة وحذر، وهي تعلم أن أصغر طفل يستطيع أن يصرعها بمقلاعه. وهمس رشيد بينه وبين نفسه: «حتى الحمائم تعرف بأننا جياع» لم تعد نظارته السوداء تفارق عينيه، ولم يعد له من أمل في مغادرة قسنطينة، حتى ولا الفندق. كنت تراه بتجاعيد وجهه، بشعره المنتصب كالعوسج، بشفتيه الجافتين، بصدره النحيل المحدودب، بساقيه القصيرتين اللتين تذكران بتمثال من الرماد، بشخص يحترق وهو حي، فما يتخلص من النيران إلا ليحمل من نهر إلى نهر حتى المرفأ الذي لم يكن يعتقد بأنه سيلحق فيه بأرملته التي كانت كل حياته معها ليلة واحدة، ولا بالشبح الذي نصب نفسه راعياً له، والذي كان ينتظره على الرصيف، ولا بالأخضر ومراد؛ لقد برزوا جميعاً كألسنة اللهيب تنبثق من جمرة واحدة. ولكن رشيداً المفطوم على هواه، الذي كان يتحدث للكاتب، لم يعد يتماسك في شيء. كانت أحاديثه تتفتت بعيداً، فما تكاد تنطلق من لسانه حتى تنهار كل رابطة بينها وبينه. أما قلبه، وأما وجهه، اللذان تحولا إلى رماد، فقد افترستهما شعلة عنيفة من الزمن»... لا، ليست سوزي، ليست من أولئك النساء اللواتي يدور في الخاطر بأن جريمة ترتكب من أجلهن... ولكنها الأخرى، المجهولة. لقد عرفني بها اللص العجوز؛ ثم تبعته فيما بعد بصورة تلقائية حتى

عنابة دون أن أعرف بأن نجمة (ليست سوزي بل نجمة) كانت ابنته».

صحيح أننا كنا في رحلتنا البعيدة، نحو الديار المقدسة... ولكن كان علينا أن نعود معاً، بعد أن ارتبطنا بالسر الذي لم يكشف لي منه إلا قسماً ضئيلاً جداً، ذلك القسم الذي لا يمسني إلا قليلاً. كان علينا أن نعود إلى عنابة قبل الاختطاف بزمن طويل، وقبل أن يتدخل الزنجي، وتقع الجريمة الثانية التي أسلمتني من جديد الى العجز... وهناك، في عنابة، رأيت نجمة مرة أخرى، بعد أن أغويتها في عنابة لأفقدها إثر الاختطاف الذي أعده أبوها. نعم، لم أرها إلا بعد سنة من إغوائها، هي مجهولة المستشفى، ابنة قبيلتي، التي كنت ألاحقها بصورة غريزية من مدينة إلى أخرى في جهل واستسلام.

9

لقد شاءت العناية الإلهية أن تكون لمدينتيَّ اللتين أحبهما، أطلالهما القريبة، في غسق الصيف نفسه؛ على مقربة من قرطاجة. وما أظن أن في العالم كله مدينتين تماثلانهما... مدينتان شقيقتان في الروعة والحزن. لقد شاهدتا قرطاجة تلتهب، وسالامبو أميرتي تختفي، في ليلة من حزيران، اسودَّ فيها عقد الياسمين تحت قميصي، بين قسنطينة وعنابة التي فقدت فيها النوم، لأنني ضحيت بهوّة الرومل من أجل مدينة أخرى ونهر آخر، في إثر الغزالة الشاردة التي كانت تستطيع وحدها أنً تنتزعني من ظلال الأرز، من الأب القتيل عشية ولادتي، في المغارة التي أستطيع وحدي أن أراها من الشرفة، جاثمة هناك، وراء الذرى المعطرة...

وغادرت أطلال «سيرتا» مع والد المجهولة، إلى أطلال «هيبون». وماذا يهم... إن كانت «هيبون» قد فقدت مجدها، وإن كانت قرطاجة قد دُفنت، وسيرتا تتوب إلى ربها، ونجمة قد أزيل بهاؤها؟... إن المدينة لا تزدهر، والدم لا يتبخر هادئاً مستريحاً إلا ساعة السقوط! ها هي ذي قرطاجة الضائعة تستفيق! وها هي ذي هيبون تبعث! وسيرتا تدرج بين الأرض والسماء... ها هي بقايا الماضي الثلاث تعود مع غروب الشمس... إنها أرض المغرب!

10

من قسنطينة إلى عنابة، ومن عنابة إلى قسنطينة، تسافر امرأة... إنها تبدو كما لو أنها لم تعد موجودة، فما تكاد تقع عليها العين إلا وهي راكبة إما في قطار، أو في عربة. لقد بات من الصعب على من يعرفونها أن يميزوها من بين العابرات. لم تعد إلا شعاعاً خريفياً حانقاً، شبحاً مطارداً ينطوي على الكارثة. ها هي ذي مجللة بالسواد، يرافقها زنجي، هو حارسها على ما يبدو، لأنه في مثل سن اللص العجوز الذي قصّر حياته، الا اذا كان قد تزوج ابنة ضحيته، بعد أن قسرها على البقاء في الندحور، وضرب عليها الحصار ليل نهار، أمام خيمة النساء. إنها تسافر أحياناً تحت حراسته، متلفعة بالسواد، من عنابة إلى قسنطينة، ومن قسنطينة إلى عنابة.

هناك مدن تشبه كل الشبه النساء الآسرات، الأرامل العديدات الأزواج اللواتي فُقِد اسمهن... المجد للمدن المغلوبة... إنها لم تذرف أحر دموعها، كما أن المحاربين لم يسكبوا دمنا كله: إن بواكير الثمار تعود للزوجات، للأرامل اللواتي ينتفخن فجأة فيعوضن كل موت، الأرامل المحافظات اللواتي يحولن الهزيمة في هدوء إلى ظفر، فما يتطرق إليهن اليأس أبداً من نسل جديد، لأن الأرض الضائعة تبتسم للقبور... وهذا الليل ليس إلا حيوية وعطراً... إنه عدو اللون والضجة... إن هذا الوطن لم يولد بعد... لقد تعدد فيه الآباء... كانوا أكثر من أن يتركوا له الفرصة ليولد في وضح النهار... لقد تعددت فيه العروق الطموحة، القانطة، الممزوجة، المختلطة، المكرهة على الزحف بين الأطلال...

وماذا يهم إذا كانت سيرتا قد نُسيَتْ... وإذا ما كان المد والجزر قد تلاعبا بهذا الوطن حتى اختلطت أصوله، واكتسحها هذا الذبول العاصف، ذبول شعب يحْتَضر، في القارة التي لا تعيها الذاكرة، الراقدة ككلب الحراسة بين العالم القديم والعالم الجديد.

قليلة تلك المدن الشبيهة بمدننا التي تتجاور في قلب أفريقيا الشمالية، احداها تحمل اسم العنب والعُنّاب، والأخرى تحمل إسماً ربما كان أشد إيغالاً في القدم، ربما كان بيزنطياً... ربما كان أقدم من سيرتا نفسها... هنا بنت إحدى القبائل البربرية حصنها في الصخر ذات يوم، وقلدها في ذلك أقوام آخرون لا يعرفهم تاريخ، وتعاقبت القبائل... حتى قدوم الرومان، ثم الانكشاريين... وكبرت المدينتان... تحت ريح الشمال وريح السُّموم، على هامش الصحراء، على مقربة من قرطاجة؛ عنابة، الخليج الذي تخرج منه ثرواتنا ولا يحتفظ لنا إلا بالدمار... عنابة التي امتدت على طول الشاطئ، يغمرها الخصبُ والخيرات، على حدود غراس الكرمة، مشاتل التبغ، (ليست لقسنطينة ولا لمدينة الجزائر مثل محطتها الماثلة على هيئة مئذنة، ذات الأبواب الزجاجية الواسعة، وحزام النخيل، والعربات التي خلفتها العصور الغابرة لتحمل زبائن سيارات الأجرة)، عنابة، التي اتسعت ابتداء من السهل، ابتداء من شواطئ الخليج المتصلة، ابتداء من الزقاق الصاعد المؤدي إلى ساحة الآرم، من السطيحات التركية، من المسجد حتى سفح الجبل الوعر الذي ينغمر في المياه، والأدغال التي استطاع رجال «بوغو» أن يسيطروا منها على المدينة... ولكن خمرها ما لبثت أن أسكرتهم وجذبهم تبغها إلى المرفأ... لم يستطع الجنود ولا المعمرون مغادرة المدينة... لم يقووا على الابتعاد عنها، ولا على الوقوف في وجه اتساعها... كان الكاتب يمرر «الجوزة» من واحد إلى آخر... إنهم ليسوا الآن في الفندق... لقد خرجوا إلى الزقاق الضيق المبلط الذي يهبط نحو ساحة الشامو... وها هم أولاء يتحلقون مع مدخنين آخرين أمام واجهة حانوت لبيع السكاكر... ويمسك بائع السكاكر بالجوزة وهو جامد الحركة (كان أنبوبها عبارة عن عود من القصب، براه رشيد بسكينه وهو يواصل حديثه) كان يتنشق بهدوء وعلى وجهه تعبير من السخرية المرة، أمام التجار الذين كانوا يجلسون القرفصاء على طول الساحة، ويتظاهرون عامدين بأنهم لا يلاحظون شيئاً...

– يكفي ذلك لهذا المساء... قالها رشيد وهو ينهض من مكانه... انه ليس إلا لعنة خالصة من الله، أو من اللص العجوز... لا أستطيع الوصول إلى الأسباب الأولى لأني قد ارتبطت بكثير من الأموات... كثير من الأموات...

11

مذكرات مصطفى «تابع»

سحر نجمة الطاغي كان مصدره بلا خلاف الجو الذي أحيطت به وهي طفلة، في تلك الفترة التي كانت تشتعل فيها نزعة السيطرة والتدمير لدى الراهبة التي قدمت قرباناً وهي في أزهى حللها: تلك الروعة البكر، تلك الأسلحة الحمراء التي لا يخطر بالبال أن أية امرأة تستطيع استخدامها بمثل مهارتها ودرايتها. إن مجاملات لالا فاطمة، وتخاذل زوجها قد جعلا من الطفلة موضوعاً مقدساً بكل معنى الكلمة، وغسلاها من مساوئها الصبيانية، ثم صقلاها، وزخرفاها، وأحرقا على قدميها البخور، دون أن يساورهما أدنى خوف من إفسادها. كانت نجمة في حقيقتها متوحشة... وقد توصل مربوها شيئاً فشيئاً إلى إزاحة العقبات من طريقها؛ ولكن هذه الحرية التي مُنحت مجاناً في غير عالمها، وفي غير أوانها، انقلبت عائقاً من أشنع العوائق في طريقها.

كانت أمها بالتبني عقيماً، وكان زوجها تقياً، فإذا الخصيُّ، والمرأة السليطة يخران ساجدين أمام العذراء، وإذا هما لا يستطيعان أن يحصدا إلا الكره بعبادتهما السامة عبادة الأقرباء المزيفين. لقد توصلت مفاتن نجمة التي قُطّرت في الوحدة إلى أن قَيَّدتها هي نفسها، وأسلمتها إلى التأمل، تأمل جمالها الأسير إلى الشك، إلى القسوة أمام تملق حرّاسها الكئيب، ولم تعد تملك إلا أهواءها الصامتة، وإلا حبها للظلام والأحلام الغيرى، كضفدعة تملأ الفضاء من حولها بالأصوات الليلية، ثم تتوارى لدى أول شعاع من أشعة الحرارة... ضفدعة لمعت، وصَرخت، وقفزت إلى وجه العالم، وأثارت جيشاً من الذكور، تتبعه امرأة كظل يكفيه أن يجتازه حتى يبلغ السمت، بعيداً عن تلك التي تمثل دور الولود التي لا ينتظر الرجل ثمارها إلا بعد أن يكون قد تجرد من قوته المبتلعة في تجربة بلا جدوى.

لم يضم جيش الذكور هؤلاء قطُّ إلا الشكل، ولم يبق منه عندما مر الزمن، وتلاشت القوة، لم يبق منه إلا انهيار تحت قدمي المبدأ القديم، مبدأ استعداد الذكر والأنثى للالتحام معاً حتى انبلاج الصباح. ولكن... ما إن يبزغ الفجر حتى يفترقا ؟ الضفدعة في دفء الوحل، جريحة منذ الفصل الأول، مشوهة طيلة الفصول الثلاثة الأخر، تنزف دماؤها كل شهر مرة كما يشاء لها القدر، وعالم الفيزياء بكْرٌ أبداً، جاهل أبداً، في يأس من الحل الضائع –. الرجل والمرأة يخاتل كل منهما الآخر، محرومين من جوهرهما، بينما تجأر بعيداً عن أحشائهما زمرة الكائنات التي تجمع الذكورة والأنوثة، وتخبط خبط عشواء فتخلق لنفسها كارثتها: ذكورها، وإناثها، أزواجها لليلة واحدة، منذ اللقاء الأول الفاجعي على نفس الكوكب.

ذرية متناقضة لم تنقطع عن الهجرة خوفاً من عوالم أخرى قد تجدها أوسع مما ينبغي، وأبعد مما يجب، لتأمين الاختلاط البشري. إن الطبيعة الحية تتركنا في الطريق؛ إنها تلجأ إلى الأخطاء، إلى الجرائم، لتوقظ العبقريات على أعواد المشانق، وتعاقب الذين منحهم عماها امتيازاتهم في دفقة من سذاجة الأمومة، ثم تستعيد كل حواسها، ولا تستثني منها شيئاً إلا عن طريق المصادفة، رغم الذرية الرديئة التي تقلد عثراتها، وتدرج على خطاها، لأن الأم الساذجة تربي أولادها بأخطائها. إن مصائرنا لا تستطيع أن تسقط مع الأوراق الحرة، منذ أن تتحرك فينا طاقة الصبر. إن عددها يحكم عليها أن تطرح بعضه قبل الولادة، ثم تكدس آثارها في أبطال يصبح وجودهم نادراً يوماً بعد يوم. هؤلاء هم وحدهم سينزلون، من دون شهود ومن دون ذاكرة، لمواجهة الكارثة.

هكذا الأمم، والقبائل، والأسر، ومناضد العمليات، والمقابر، تنخرط كلها في الصراع، حيث تنطلق منها سهام المصير؛ هكذا مراد، ونجمة، ورشيد، وأنا؛ وقبيلتنا التي حلت بها الهزيمة، قبيلتنا التي ترفض أن تغير لونها. لقد كنا نتزاوج دائماً فيما بيننا؛ إن زواج القربى هو رابطتنا. إنه مبدأنا في الترابط منذ نفي جدنا الأول. إن نفس الدم يحملنا بصورة حتمية الى مصير النهر الذي نحلم به، بالقرب من جنيَّة البحر التي أخذت على نفسها أن تُغرق كل من يتقدم إليها. انها تفضل ذلك على الاختيار بين أبناء القبيلة – نجمة التي تدير بنجاح لعبتها، لعبة الملكة التي مرت على الحياة بسرعة، ومن دون أمل، حتى ظهور الزوج، والزنجي المسلح بمناعة ضد زواج القرابة...

إنها شجرة الوطن التي ستمد أخيراً جذورها في لحد القبيلة، تحت السحابة التي فقئت أخيراً بدم طالما أزبد وانفجر المرة تلو المرة... من يدري بأي اندفاع وراثي كان مراد يظن أنه قد وقى نفسه بعيداً عن نجمة، عندما وُجد أمام امرأة أخرى، فكان أن قام بهذا العمل الجنوني! إننا ننتسب جميعاً إلى الطليعة الكشافة التي تقدم ضحية، وتزحف باحثة عن خطوط العدو، وهي تحمل على كاهلها الخطيئة والخطر، كطلائع المكتشفين الذين أُبيدوا وهم يتلمسون الطريق، ليضطلع بالمهمة بعدهم آخرون...

أما مراد فقد ارتكب جريمته في الظلمات؛ ربما كان قد شعر في ساعات حنقه وعجزه في السجن أن اللحظة التي دفعته فيها إلى الجريمة قوة مجهولة هي التي ستعيده إلينا، جاهلاً بأن عليه أن يعاود الكرة من جديد تحت سماء لم يستطع في الماضي أن يحل رموزها، ربما أدرك حينذاك معنى هزيمتنا، وحينئذ تعود إليه ذكرى الجولة الخاسرة بصورة غامضة كسخرية تطرد الشؤم... ذكرى الجولة الخاسرة، والمرأة الآسرة، العقيمة الآسرة، المرأة التافهة، التي تبيد في ليالي الهوى كل ما تبقى لنا من الدم، لا لتشربه، وتحررنا، كالزجاجات الفارغة، ولا لتشربه لأنها لا تستطيع أن تسكبه، ولكن لتعكره فقط، تلك العقيمة الآسرة، التي تزوجت منذ فترة، تكفر الآن في عزلتها، عزلة الجمال، وهي توشك على السقوط، دون أن تلقى أي سند إلا من أشباح أوصياء، عشاق الأمس واليوم، ولا سيما الأمس، الماضي الباهر العريض الذي زرعت فيه سحرها في أماكن تزداد جفافاً يوماً بعد يوم...



كانوا ينظرون إليها تسقط، وهم يعدون خياناتهم في الظلام. كان أكثرهم من المسنين، أو من الأحداث، حيث يستطيعون الهروب دائماً، وإنكار النضال المتباهي، المغرور، الذي كانوا يتظاهرون به من أجلها دون أن تتأثر روابط الصداقة فيما بينهم، ويصرّفون تنافسهم دون أن تتضارب مصالحهم.

كان أكثرهم من المسنين... وكان لكل منهم ثأر يفكر فيه، ولكنه لا يتردد أن يفسح المجال لآخر بأدب جم... كلاب مجربة تحسب بمنطقها الخاص بها، منطق كلاب الصيد. أن الضحية هزيلة جداً، وأنها لا تتحمل التكبير فيتتابعون بالقرب منها، وهم يرونها تسقط، ويعزون أنفسهم هكذا عن فقدها. كانت ما تزال ترتدي أبهى الحلل، ولكن كثيراً من الأنيقات الحانقات كن يدفعنها إلى الظل، مع الوطنيات الثلاث أو الاربع اللواتي نزعن عنهن الحجاب، ولم يكنّ من الثريات بل من بنات الموظفين أو التجار اللواتي كانت الأوربيات تجهلهن. وكانت رفيقاتهن القديمات يشرن إليهن بالبنان من النافذة، هن اللواتي لم يكنّ يستطعن البقاء محجوزات، ولا يرغبن أن يعرضن أنفسهن في العالم الآخر؛ ملعونات ويُغض الطرف عن سلوكهن كما لو أن فضيحتهن تبعث على التأمل، حتى ولو لم يكن من وراء ذلك إلا إظهار فضيلة اللواتي قبعن في خدورهن، قانعات بالعادات المستقيمة مخلصات للحجاب والتقاليد، بفضيلة التمسك بالعفاف التي يكمن فيها شرف أبناء المدينة... أما الجميلات، والطائشات. فيباح لهن أن يخرقن العُرف، ما دامت الحشمة القديمة لم تمس، حشمة القبيلة، حشمة الدم المتراكم بوحشية من قبل الزعماء الذين يتتابعون الواحد تلو الآخر، والبدو الذين انفصلوا عن القافلة، ولجأوا إلى هذه المدن الساحلية حيث يتعارف الناجون منهم، ويتجمعون، يستولون على التجارة، والوظائف الحكومية بصبر لا ينفد، ولا يتزاوجون إلا فيما بينهم، فتحافظ كل أسرة على أبنائها، وبناتها، متمسكين بالقربى، قربى الزواج بلا شفقة كتلك الأحصنة التي كانت تُقرن في مصر القديمة في قَرن واحد، حاملة الأسلحة أو التعاليم المندثرة لأحد الأجداد، أحد هؤلاء الصعاليك الذين ابتعدوا عن قافلتهم خلال تلك الهجرات التي تحدث عنها الجغرافيون العرب؛ والتي كانت تسير من الشرق الأوسط، ثم من آسيا؛ وتحط في شمال أفريقيا، في أرض الشمس الغاربة، التي رأت ولادة المرأة العقيمة الأسرة... نجمة... هلاكنا، نجمة... (طالع قبيلتنا المشؤوم)...

12

– سيمثل أمام محكمة الاستئناف.

وقاطعه رشيد:

– اشرب.

– تقول إنه صديقك.

– لا شيء أفضل من الشاي البارد.

– ماذا لو كتبت للمحكمة؟

وانحنى رشيد قليلاً إلى الأمام، فوق الرأس الضيق؛ كانت ريح الصيف تنفخ قميصه العتيق المفتوح، وتابع دون أن يلتفت، كما لو كان الكاتب غير موجود. كان الصوت قد أصبح أصم... لا هو بالنجوى ولا بالحديث... كان مجرد انعتاق في أحضان الهوّة... وكان رشيد يواصل كلامه على بعد، في وضع القصّاص الذي يندفع أمام جمهور غير مَرئي من المستمعين. ومما يثير الفضول أن الكاتب كان يُغفي على كرسيه كطفل يطالب بشيء من الترابط والمنطق يهدهده، فلا يجاب إلى طلبه. «... لم يرتكب مراد جرماً. لقد قتَلَ، غير متعمد، أبا امرأة لا يحبها. كان ذلك ليلة العرس... وكانت هناك ظروف وملابسات، واختلال في سير الأمور... إلى أسباب أخرى غير الأسباب التي ستذكرها المحكمة. ان علة كل ذلك تكمن في لامبالاة أمرأة فرنسية ترقد الآن هامدة على الأغلب، امرأة لا تستطيع الاختيار بين عشاقها، بحيث أصبح الزواج المحرم بين الأقرباء أمراً ممكن الوقوع... أية محكمة؟ لا تكتب. إليك قصتي: لقد سلخت خمس سنوات هارباً من الجندية، دون أن أخلع قميصي العسكري. ومع ذلك لم يُلْقَ القبض عليّ. لم أكتف بالتجوال من مدينة إلى أخرى، بل ارتكبت كل المخالفات، دون أن أعاقب. ثم، لا أدري في أي مساء، خطر لي أن ألقي حجرة على سيارة رجل زحمني في شارع الآبيم، فإذا هو ينزل إليّ، وإذا بي أجد نفسي في السجن...

لقد فتحوا إضبارتي... «اذاً؟ فأنت الهارب من الجندية؟» وهكذا، دع المحكمة وشأنها... دع الزمن يمر... لا تقلق نوم الذباب... أترك البئر مغلقة كما يقولون... كان الكاتب يغط في النوم... وتمر أمامه هذه الصور: الزنبق. النعناع. الحَبَق. العصافير التي تترنح في نومها الخفيف الغني. الشاي البارد... كأن رشيد ينظف «الجوزة»، فوق الهوة الليلية، وهو يطل من عل، كطائرة هائمة، مسالمة، حساسة، مطاردة بين الأصل والواقع، بين الأب الصريع، والزنجي الذي ثأر له، ولكنه احتفظ بنجمة رهينة عنده.

الفصل السابع

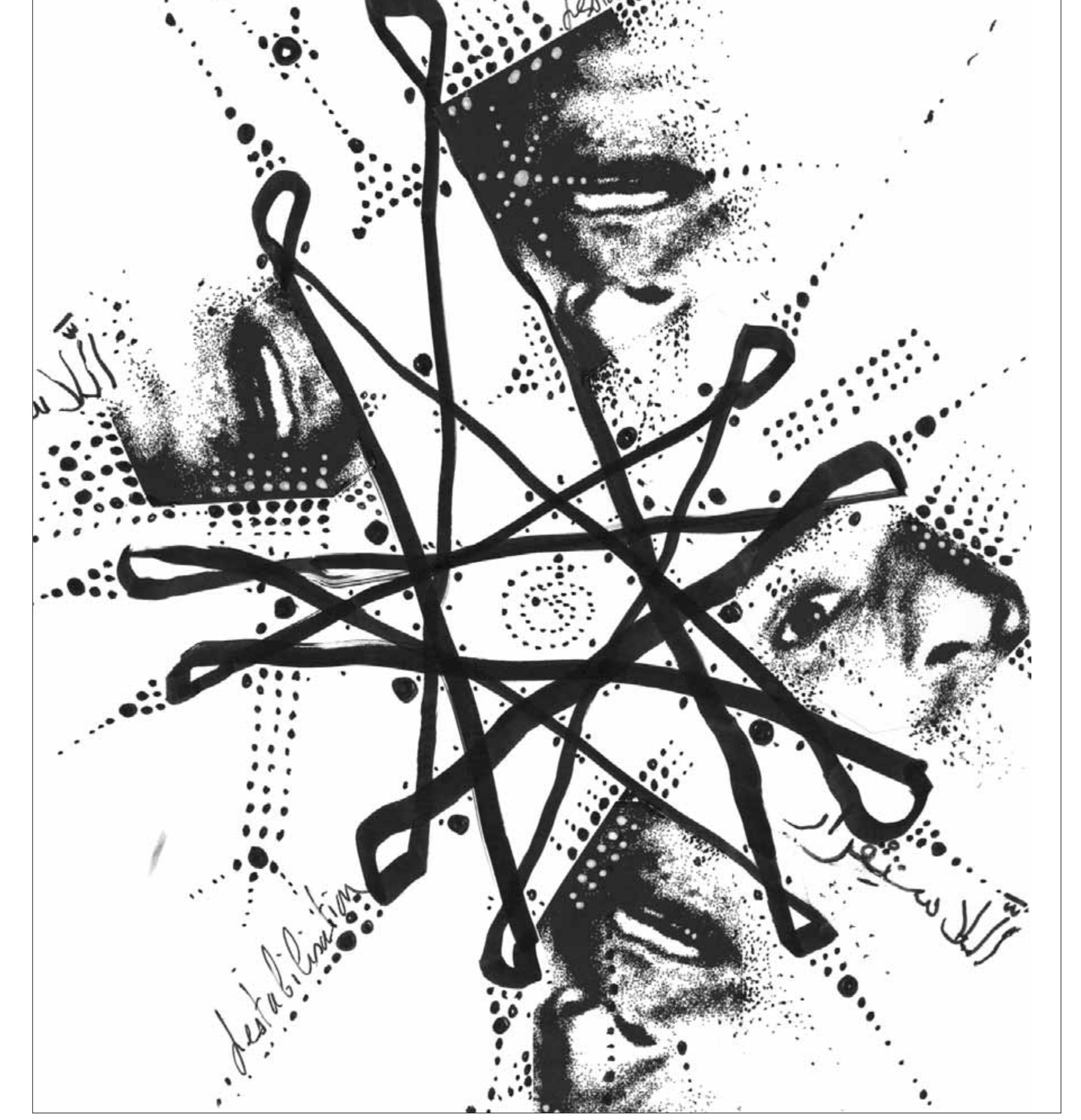
1

ومرّ عامان على هجر سيدي أحمد لزوجته زهرة، أم مراد والأخضر، وإذا فرصة جيدة تتاح أمامها؛ كان مزارع كهل من ضواحي سطيف يقضي بضعة أيام آنذاك في الأهراس.

وتشاء الظروف أن يرتبط بصداقة مع أبي زهرة، وهو حطاب يبلغ الستين، يعول ثلاث بنات أخريات، بالإضافة إلى زهرة؛ واهتم محمود، المزارع العجوز بالمطلقة من أجل ابنه الوحيد الضال الذي يدعى طاهر، والذي ابتاع له حانوت بقال في سن... وكان من رأيه أن المرأة اذا ما انضمت إلى الحانوت استطاعت أن تعيد الولد إلى جادة الصواب. وكان الأخضر ما يزال رضيعاً في عرس أمه الثاني.

ومر الزمن... وترك الأخضر اليقطينة الكبيرة التي كانت سريراً له معلقاً في زاوية غرفة الزوجين على بعد متساو من الفراش والموقد ودشن الرضيع قوته بالتمرغ في هباب الفحم، وروائح الرماد، والغسيل الجاف، وحليب المرأة. كان الأخضر غالباً ما يجد نفسه مطروحاً وحده على جلد خروف واسع الرقعة.

وراح الصبي يجرجر نفسه في الكوخ؛ كان الفضاء الهائل المحيط به يتألف من أربعة جدران غير متناسقة وسقف كثيف. وتألب عليه الجوع، والعجز، والوحدة، فتركته طريحاً على ظهره. كان الغرض الوحيد الذي يحج اليه أبداً في البيت صندوقاً شديد الارتفاع تلقي فيه أمه أمتعتها. ورأى الأخضر ذات يوم مصباح الغاز يشتعل عالياً فوق الصندوق، فحاول الاحتجاج، وابتدع طرقاً كثيرة للبكاء، وحل الوثاق الذي كانت أمه زهرة تصر على أن تلفّه به كنبيل مصري، فيجد نفسه في تلك الصرة قوياً مشلولاً. وعندما تمزق جلد الخروف استُعيض عنه بأغطية الصوف التي كان طاهر يحتكر استعمالها فلا يبقى للأخضر مكان فيها. كانت الحشرات إذا ما اعتدل الجو تجذبه من سجنه، فيزحف على أربع، ويجتاز الستارة التي تقوم مقام الباب، ورأسه محني، ليسمح للعام الجديد بالدخول، وتتفتح ممالك البرية أمامه، ويجبر زهرة على إرضاعه، ويتناول الثديين اللذين لم يعضهما مرة واحدة! ويحمله محمود بين ذراعيه... كان



الأخضر يشعر كأنه يبول على من هو أكبر منه سناً.

وتُرك أخيراً في أحضان الطبيعة...

كان أترابه الصغار يحسون الضيق من القادم الجديد.

أولئك الأطفال الخصوم الذين يشم بعضهم بعضاً.

يحاول كل منهم أن يجرب أم الآخر.

وعلى مر الزمن، كان الأخضر ينتقل من مزرعة إلى مزرعة، فيُضرب، ويجرد من أقل كسرة خبز في يده، ويُفتح جلده لدى كل سياج، يحتك بالجذوع، ويزوَّد بعظام كبيرة تزيد فكيه صلابة، ثم راح يمشي سراً، ويعود إلى الزحف، لا تفوته أية عربدة من عربدات الصغار... ثم لا يلبث أن يكتسب شيئاً من الهدوء لفقدان التربية، وكثرة ما يخوض من مشاجرات وهو يرتدي قميصاً من الكتان الأزرق.

ثم فُطم... ومنذ ذلك اليوم، بدأت الأم، المتآمرة تؤدبه بعنف؛ كان سيدي طاهر يكتفي بالدعابات الرجولية لإظهار عواطفه. كان يعطي الصغير قطعاً من النقود، ويجس له خصيتيه على ملأ من الناس. كان محمود يخفي أن اليتيم ليس من نسل إبنه. كان يصحب الأخضر إلى المقهى ليتحدى منافسيه القدماء؛ ولم تكن زهرة لتحلم بأكثر من ذلك. كان الأخضر يبدو معلقاً في اصبعها، طوال قضاء أعمال الصيف. فإذا ما جاء الشتاء كأن أشد ما يثير أعصابه أن يرى نفسه ملتصقاً بتلك الأم القبيحة، المبتلة القدمين دائماً. كانت البطلة الأمية والرضيع اللذيذ أماً وابناً عاشقين بالمعنى البدائي الأفلاطوني.

وجاء دور الصراع والاستقلال... وراح الأخضر يزرع أطرافه الأربعة في التراب، كراهب بوذي ما يزال أبيض الصدر، يتسلق الحفر المغطاة بالغربان، وتمر البروق مراً ساطعاً مخترقاً شجرة الكمثري، فيلتقط الأخضر المقلاع، وهو مستلق على العشب، وحيداً تحت أشجار الحور، ويقتل العصافير التي أرهقها النعاس بقلب تملأه الثقة؛ ولكنه كان أصغر من أن يعرف كيف يتأكد من موت ضحاياه... كان يحس نشوة الفضاء المحيط به... كانت المعزى تبكي، وهي تبدو أصغر من الأخضر، على أقدام شجرات الحور... ويأخذ الصغير في عض ثوبه، وقدماه عاريتان تتلقفان الشمس والشوك على السواء. وعلى مقربة من النبع كنت ترى فتيات صغيرات قد نسين أنفسهن... إنهن صغيرات حقاً؛ ولكنهن مع ذلك يتزينَّ بالشال، ويغمزن بأعينهن غمزات آسرة... ولم يكن الأخضر ليهتم إلا بمطاردة عنزاته، كأنما يعد نفسه لراعي المستقبل الذي سيكونه، وهو ينظر إلى الأمور برصانة لا تقل عن رصانة جده الذي يدخن حالماً بوحشية ساخرة، كوحشية مروّض يمتطي ظهر حماره الحاد. كان الطفل ينضم الى الحيوان والرجل، ثم يطوفون معاً في الحقول، بحثاً عن الأماكن العميقة، الرطبة، وتنسكب دفقة من الشمس على اللحية الحمراء فتجعل الأخضر يغمض عينيه، ثم يهبطون وسط غابة؛ فيستهويهم ظلها الظليل، وهواؤها الناعم، فيستقرون قليلاً ليأخذ الحيوان والجد قسطاً من الراحة... يجلسون متنصتين إلى نشيد عمال كأنما يأتي من عالم آخر...

وما يكاد الفلاحون يختفون من وراء الأشجار حتى تحل زهرة ثوبها، وتغمره بفقاعات بديعة من الصابون؛ وتقلب في صندوق زواجها أشياء رائعة من وعاء مملوء بحب القرنفل، إلى عقد من الزجاج الضخم، ذي الألوان الفاقعة بين أصفر وأزرق، إلى مبخرة تدخر فيها مسحوق السودان الذي تصبغ به الأهداب. لم يكن الأخضر يعود إلى الكوخ إلا ساعة الطعام؛ ويغادره فجراً مع الرجال، ولكنه يتجه في الطريق المعاكس للقرية، نحو مدافن أجداده غير الحقيقيين... وماذا يهم اليتيم إذا لم تكن عائلته هي التي قضت هنا، وهي تجاهد لتحويل قمة الجبل إلى كرم للزيتون، بعيداً عن القرية، بين المقبرة والمسلخ!...

2

وتزود زهرة الأخضر بخمس بيضات ليقدمها إلى مدير المدرسة الوطنية: «أستاذ، الولد الجديد يبصق في المحبرة» ويلقيه المدير أرضاً؛ وتتورع يده من أطراف الأصابع حتى المعصم. وها هو ذا يروح ويجيء أمام الصف غاضباً، إذ وجد نفسه يصطاد وحيداً ويصوب مقلاعه باتجاه النافذة ولكن المعلم لم يره لحسن الحظ؛ يا للقرية المسكينة!...

وعاد الأخضر يلقي شباكه للصيد؛ ويحمل جذوع الأشجار للمدفأة الكبيرة، ذات الفتحتين، التي حوّلها محمود إلى فرن...

يسكن محمود غرفتين مبنيتين من الحجر، على حدود أرض سَبْخَة، رُدمت، وسوِّيت، وانقلب المستنقع في بعض أجزائه الى حديقة، وفي القسم الآخر إلى مخزن واصطبل، وأخيراً إلى ورضة للعمل. ثم أنشئت بأحجار المقالع الكبيرة غرفة ثالثة، وبدأ محمود يفكر في الانسحاب إليها، ليخليَ الغرفتين الأخريين لطاهر وزوجته اللذين لم تُتَحْ لسكناهما الا زاوية واحدة من الكوخ، تلك الزاوية التي ستصبح في المستقبل غرفة للأخضر. ويملك محمود، بالإضافة إلى المنزل وكرم الزيتون حماراً وبغلاً منهوك القوى يحسن استبداله، وثماني نعجات، وعنزة واحدة يموت صغارها لأسباب متعددة تحت قيادة الأخضر.

كان محمود في السبعين، أو الثمانين، لا فرق... لقد فقد كثيراً من الأولاد؛ وأنقذ هذين الهكتارين في أقصى البرية. كان آباؤه يمتلكون ستين هكتاراً، ولكن يبدو أن أرض الأجداد قد ذابت تحت أقدام الأولاد الجدد. لقد عاصر محمود تأسيس القرية، وأضاع أراضيه، ولكنه امتلك حانوت البقالة الذي يديره ابنه الآن. كان البقال يشاطر السيد برونو اللهو والمجون؛ ولم يكن السيد برونو سوى سائق البلدية المختلطة الذي لا يعرف أحد كيف جاء من فرنسا.

وعندما نقل الأخضر من الأهراس إلى كرم الزيتون كان أبوه بالتبني في طريقه إلى بيع الحانوت، ليختطف غسالة ألزاسية كان السيد برونو يعاشرها مجاناً وهو يدفع طاهر قائلاً: «إنها توشك أن ترتمي بين ذراعيك؛ أؤكد لك ذلك؛ السيدة أرملة وليس لها أحد؛ وهي سعيدة أن تراك دائماً مع موظف حكومي».

كان المحل الذي تديره السيد أوديل يقع في أبرز جادة في سطيف؛ وكان القرويان يجتازان لرؤيتها مئة كيلومتر ذهاباً وإياباً في عربة للحاكم، أكبر سلطة في س... وكان السيد برونو لا يخفي ما في هذه الرحلات من تبعات، فيسكته طاهر بتقديم رزم من الأغذية، وجرار من الزيت، وعدد من الطيور، وأشياء ثمينة أخرى، تكفي لإرضاء الغسالة، وعدم إثارة رؤساء السيد برونو اذا ما أثير موضوع قبول بقال عربي بربري في عربة ليس فيها مكان إلا لرئيس البلدية ومساعديه؛ ولا ننسى أن طاهراً كان يستعير بغلاً لمغادرة القرية، ويلاقي السيد برونو شريكه قرب المقبرة؛ ومن ثم يذهبان إلى المدينة مجتازين طريقاً غير مطروق. ويكمل طاهر طريقه حتى سطيف ما دام في السيارة، ولا يلبث السائق أن يقف أمام محل الالزاسية، فتبادر إلى استقبالهما، وتفتح لهما مسكنها، وتدعو نساء أخريات، تاركة لنفسها حق صرف ضيوفها حوالي منتصف الليل.

كانت تلك الزيارات الليلية التي يقترحها السيد برونو بما يتخللها من وقفات تعيد لزهرة زوجها غائباً عن الوعي، يتعتعه السكر، في كل مرة. لم تكن تتجاوز العشرين في خريف زواجها الثاني؛ كانت تتوسل إليه بلا جدوى، ولم يكن طاهر ليقلل، بعد كل التوسلات، من اخراج تلك الزجاجات البيض الملعونة من قبعة برنسه ألتي كانت تجعل الزوجة المسكينة ترتاب حتى في الماء.

لقد أفاد الأخضر من قطيع جده، خلال إصابته بالسعال الديكي: أفاد ثلاثة أثواب، وبنطالاً، وقميصاً للأعياد. أضف إلى ذلك انه استمتع بتأمل الطبيعة ردحاً من الزمن على ظهر حماره؛ وحصل أيضاً على قبعة من الصوف، وخف من جلد الماعز، وعصا من أغصان الزيتون البري.

لم يكن في تلك السنة ربيع، حتى نيسان، كانت الريح فيه تسوق الغيوم على جوانب جبل التفات، حيث يلتقي الرعيان. لقد غرق الأخضر في الوحل غير مرة... وها هي الغيوم تبدو اليوم منخفضة، قريبة من الأرض، والمطر يجلد الوجوه من ساعة لأخرى... طوفان هادئ يجتاح أشجار السنديان المنحنية... ويهم الأخضر بالركض، وتعود النعجات للعشب المبتل، فيضرب واحدة منها على خيشومها بقسوة تضطره إلى حملها على ظهر الحمار:

«لست من ورق لتخشى المطر». قال محمود ذلك وانهال على الأخضر بعصاه يضربه بشدة، لقد ماتت النعجة، ونام الحمار مع العنزات والنعاج... إن هذه البهائم لتحتاج إلى كثير من العلف، من الأغصان والخرنوب. وذات ليلة أثار صغير عنز اشتُريت حديثاً الحمار بشدة عندما مر من تحت بطنه ليسرق له جرابته من العلف، فقتله الحمار برفسة بين عينيه، وكان محمود في السوق، فساعدت زهرة الأخضر على حمل الجدي إلى حوض نهر بو سالم... وفي طريق العودة صادفا محموداً على الطريق:

– أين الجدي؟

– مات.

– كيف؟

– رفسه الحمار.

– أي حمار؟ أنت أما أنا؟

لم يبك الأخضر. انها أول مرة لا ينصفه فيها محمود. واتخذ الأخضر منها سابقة ليتخلص من الضرب. لكنه ارتاح بعد ذلك بقليل لموت عنز تخص راعياً آخر، عنز كانت شهيرة... كانت تنتج ثلاثة رؤوس كل عام. لقد اتفقا على إقامة سباق، الأخضر والراعي الآخر كل منهما على ظهر عنزته. وسقطت الأخيرة على بطنها، فمات حملها معها؛ كان حملها في هذه المرة أربعة جداء... ويسرد الأخضر المغامرة لمحمود فيضربه لموافقته على السباق.

كان طريق النهر سهلاً، عريضاً، صلباً. انه الطريق الروماني، ما يزال محتفظاً بآثار العربات؛ لقد شهد ميلاد القرية، ولكن الحمار مخاتل كبير. إنه يتبع الطريق فترة وجيزة تطول وتقصر كما يشاء. يبدو أنه قد ألفَ هذا الطريق ولذا يرخي له الأخضر اللجام، ويمسكَ بظهر أخيه الصغير؛ ويسير الحمار ببطء، بخطوات منتظمة، متظاهراً بالاعتزاز، اعتزاز عبد قُدِّر له أن يكون تحت غل أبدي، أو اعتزاز جندي محترًف، هادئ، قوي البنيان؛ ويأخذ تبلده شكل امتحان جديد لصغر السائس، وطفولة الراكب. فإذا ما أغفى الأخضر أرخى اللجام، واستولت عليه اللامبالاة بفكرة الحمار الوحيدة التي قد تخطر له، فكرة الانعتاق، وضياع الراكب. أما أخو الأخضر فلا يدرك شيئاً من ذلك؛ ولو أدرك لارتكز بصورة أفضل، وأمسك بالسلال، ولم يمض هانئاً، خالي البال...

لم يكن أخو الأخضر ثقيلاً. كانت ضرباته تزداد شدة، ولكن الحمار كان يتخلص بمهارة من أكثر الضربات...

كان الأخضر يحافظ على مظهر السائس المحايد.

وأصمّ الحمار أذنيه عن التقاليد المتبعة. ولم يكن هناك شيء يستطيع أن يحرك الغضبَ الكظيم...

3

لا شيء يحرك غضَبَ المضطَهَد الكظيم؛ إنه لا يعد السنين، ولا يميز الرجال ولا الطرقات، وليس أمامه الا طريق واحد، هو الطريق الروماني، الطريق المفضي إلى النهر، إلى الراحة، إلى الموت...

كيف يُساسُ الحمار؟ لقد خُلق للأعمال المألوفة، واعتاد ذلك، وهو يثابر على عمله ملتزماً جانب الحياد. إنه لا ينقاد للسائس، بل يتجاهل وجوده كل التجاهل بشيء من سوء الطوية، وينقل إليه أناته، أناة العبد الصابر المستكين.

إن التحالف مع الحمار ضرب من المستحيل.
هوذا يحك الراكب بالشجرة، ولكن بلطف ورقة
فيسقط أخو الأخضر الصغير على أنفه
ويحمر ماء النهر.
ويعيد الأخضر أخاه إلى السلة

لقد نسي الحزام في البيت؛ فأمسك باللجام، ونظر إلى المعزى وهي تشرب... إنها من صنف آخر. إن رشاقتها تجعلها محببة فلا تحوج الإنسان إلى أكثر من ملاحظتها. فإذا ما غفل عنها راعيها لحظة فربما اكتسحت حديقة، أو أثارت شجاراً في بلد العجائز هذا، البلد الذي نُفي شبابه جميعاً... يا للأرض الناكرة للجميل! ومع ذلك تظل ثمينة، ثمينة جداً في أعيننا... إن تلك العنزات قادرة على أن تسبب مأساة إذا ما نام الراعي...



الأخضر على يقين من أنه سيستحم اليوم... لقد استيقظ منذ الثالثة صباحاً، وسيذهب في التاسعة لحلب الماشية، ثم يتظاهر بالنوم أمام الباحة في انتظار طعامه... وأخيراً سيأكل... ثم يسمع الأصوات تناديه، ويعود إلى النهر بدون القطيع... سيكون الرفاق في الماء... ستحتفل القرية أيما احتفال هذا اليوم... يجب أن ينام ولكن بدون أن يفوته شيء من الحديث... فإذا ما نام الأخضر أثناء السهرة أو بعدها ضيع عليه الفرصة... وما دام يوقظ في الساعة الثالثة طوال فصل الصيف، فصل الأعراس، فسوف ينام دائماً وهو يقود ماشيته، وسيستفيد من ذلك حيوان ما...

لا...

يجب مغالبة الأحلام...

ويدفع الأخضر ثمن السباحة والسهرة.

هو ذا الحمار يشرب.

والأخضر ممسك بالزمام.

والأخ الصغير سعيد.

ويعود الأخضر إلى الأحلام من جديد.

ويستغرق الحمار في الشرب فترة طويلة.

ويسهو الأخضر عن أخيه، ويأكل بعض التين.

الحمار يشرب...

وتعلو الشمس في الأفق...

ويغير الحمار مكانه قليلاً...

ويتابع الأخضر أحلامه...

«إنه الذباب»...

ويخطو الحمار خطوة، وكأنما تعمد ذلك، على الحصى...

ويسقط الأخ الصغير في النهر...

ويقبع في المنزل طريح الفراش...

ويعود محمود من السفر ممتطياً بغلاً صغيراً مجهولاً.

ويتوجه بلهجة مترفعة، مؤثرة إلى الأخضر الخجل، الواقف على العتبة:

– امكثوا في أماكنكم... لا يتحرك أحد...

ويهم محمود بالنزول.

ويتقدم البغل نحو الباب، كما لو أنه في بيته.

وتصطدم عمامة محمود في أعلى الجدار.

ويقبع مريضاً في الدار.

وينام محمود وأخو الأخضر الصغير معاً.

ويأكل الحمار والبغل في إناء واحد.

ويصدر محمود أمره:

– لا يركب أحد بغلي!

ويأمر الأخضر:

– لا يركب أحد حماري!

إنه موسم الحصاد.

ينهض محمود قبل الفجر.

ويحمل الأخضر الأعشاب.

فيلتهمها الحمار في الطريق.

ويضربه الأخضر بعصاه.

ولكن الحمار يواصل الأكل.

ويترجل الأخضر.

ويسقط الحمار مريضاً على الطريق.

ويغمض عينيه.

فيبكي الأخضر.

ويشخر الحمار.

ويصل محمود:

– لماذا يُضْرَب الحمار؟

– لقد أكل القمح.

– أين الحشائش الباقية؟

– لم أقوَ على حملها كلها...

– ستأكل المعزى الباقي. كان عليك أن تأتي بالعَلَف كله، وتدع الحمار يأكل كما يشتهي.

– لم يُصنَع القمح للحمير.

– إذهب لإحضار بقية الحشائش.

وينطلق الأخضر ممتطياً الحمار الذي عُوفِيَ من جديد.

كانت الحشائش على مقربة من بقايا جدار.

وكانت الشمس على المغيب.

وإذا ثعبان سعيد.

يخرج من الدار.

ولم يشأ الحمار أن يعرف شيئاً.

وينزل الأخضر.

يريد أن يزحزح الأحجار.

ويتثنى الثعبان.

وينطلق الحمار هارباً، وهو يخبُ.

ويلقي الأخضر بحجر على الأفعى.

ويصيح محمود:

– أين القمح؟

لقد أكلت المعزى كل شيء؛ ويهرب الأخضر بدوره، ويستلقي على سلم الكنيسة، يعلّم ابن الوكيل[6] التدخين.

إن الأستاذ غريب وكيل رث الهندام.

إنه وكيل يشرب العرق عند السيدة نورا.

ويقول ابن الوكيل في نفسه:

«ليس للأخضر أب»

ويغمغم الأخضر:

«لم يركب ابن الوكيل حماراً قط».

ويناول مصطفى سيجارة.

ويفكر الأخضر ومصطفى معاً:

«إن الكنيسة مغلقة الأبواب لحسن الحظ».

ثم يفترقان...

لأن الليل يوشك أن يهبط.

4

وتناول الأستاذ غريب كاس العرق الثامنة من السيدة نورا، صاحبة الفندق ذي المطعم الوحيد في س... لقد ربح هذا الأربعاء دعوى هامة، فيها حكم بالسجن، كما كان يردد سيدي خليل مؤيداً ذلك. ولقد أحضر له موكلوه كيساً مملوءاً بالحجال، قدمه بدوره للسيدة نورا، فانطلقت تردد وهي تقدم كأساً للجميع:

– في صحة الأستاذ غريب!

وتردد جوقة الزبائن وراءها:

– يعيش الأستاذ غريب!

ويقول البقال طاهر، وهو يعتمد على ذراع الوكيل:

– عفواً، هل تشرفني بتناول كأس على حسابي.

– معذرة، اليوم يومي.

– إني أكن لك التقدير منذ أمد بعيد، أيها الأستاذ، آه! لو كنا جميعاً بمقدرتك!

– إن ما قصّرنا عنه سيبلغه أولادنا. لك ابن... أليس كذلك؟

وأجاب البقال:

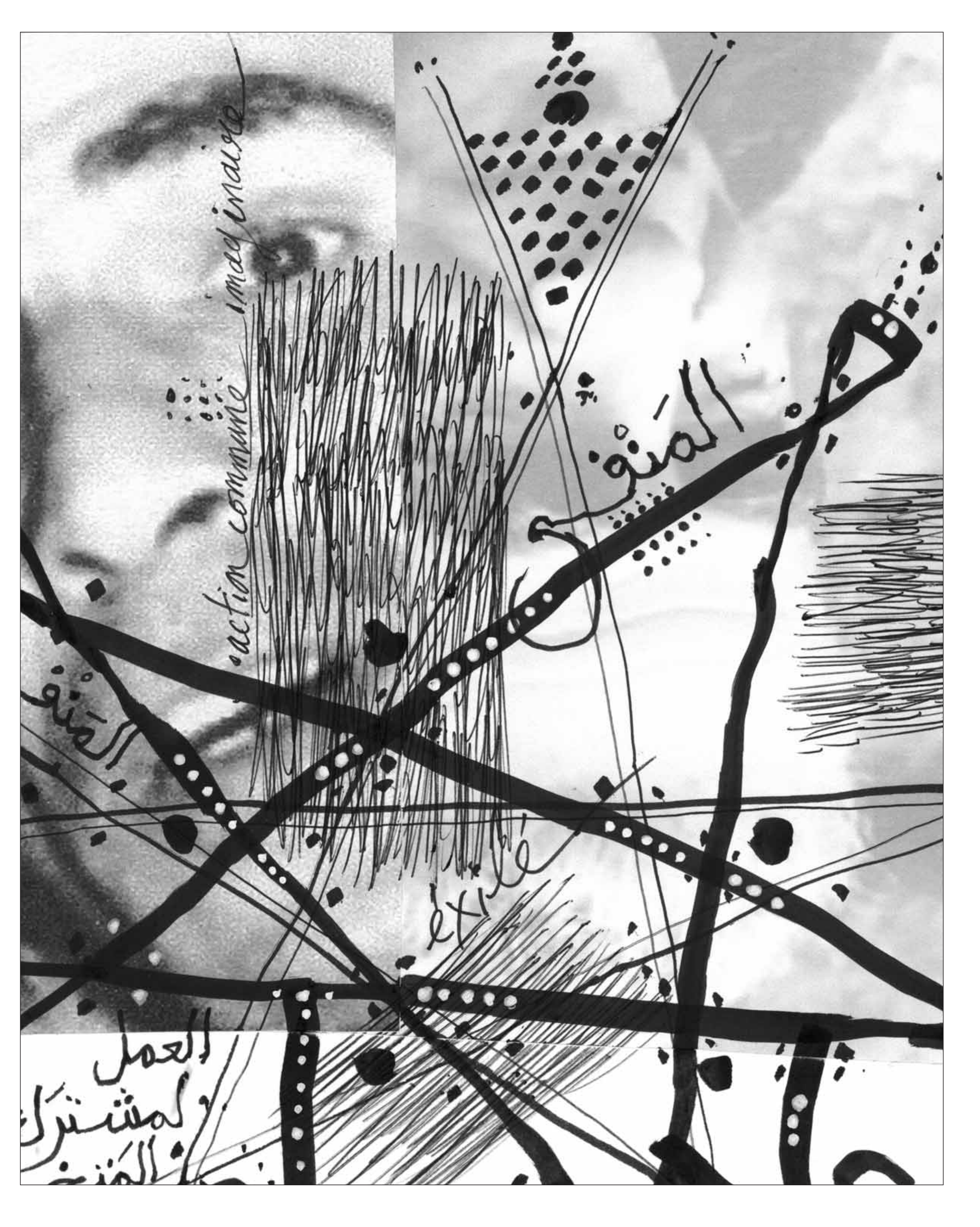
– لي ابنان... أحدهما لزوجتي، والآخر لي.

واتكأ الوكيل على المنضدة:

– ما العمل! أيها الأستاذ! كان لزوجتي طفل يتيم. وكان يرضع، عندما تزوجتها.

– وما رأي الجد في ذلك؟

– إن أبي يحبه كثيراً. وهو الذي سماه الأخضر.



– أتريد الصراحة؟ إن أحوالك تسمح بإدخاله المدرسة...

– دعه يدبر أمره مع جده. لقد أرسله إلى المدرسة الوطنية، وإذا بي أراه راعياً. بزرة عاطلة!

– هل تجاوز السن القانونية؟

– لقد اجتاز الثامنة! وهو يلاحق الفتيات...

– عمر ابني مصطفى. أما أنا فقد فرضته فرضاً على المدرسة المختلطة. نحن فرنسيون! إنه القانون.

وتهبط المعلمة درج المطعم.

ويرفع الأستاذ غريب نبرته:

– أحضر ابنك. انني أتكفل بتسجيله. إن الآنسة دوباك لا تميز بين واحد وآخر البتة.

إن وجهاء المسلمين وحدهم في س... هم الذي يرسلون أولادهم إلى المدرسة المختلطة. أما طاهر فليس إلا بقال. والآنسة دوباك... هل يقوى طاهر على النظر إليها؟ ويضرب براحته السمينة على المنضدة.

– أدامك الله يا حكيم[7]، لنشرب كأساً أخيرة!

– إنه أمر بسيط جداً. تعال انزل معي. كل ما في الأمر أن يجد المرء الحديث!

ويترك الأستاذ غريب عصاه على المنضدة. ويسلم برنسه إلى السيدة نورا. أما طاهر فلم يجرؤ على أن يلحق بالوكيل على الدرج.

– تحياتي... يا آنسة!

وتلاطفه الآنسة، وجناح من الحجل بين أسنانها.

وأعاد وجود قاضي الصلح الثقة إلى المتكلم. وكان القاضي يبدو مرحاً في تلك الأثناء، فإذا هو يحتضن أحب محاميه إليه؛ واتخذ رجلاً القضاء مكانهما بقرب الحسناء لئلا يفقدا التوازن. وقدمت السيدة نورا وجبة الطعام بصورة آلية للجميع، وجددت شكرها لهدية كيس الحجال. كانت الآنسة دوباك، التي تلتمع شفتاها، تتذوق طعم الهدية في تلك اللحظة، وكان هذا كافياً لخلق الرابطة بين الاثنين، من الخيط إلى الإبرة. وقام القاضي بدوره للدفاع عن الأخضر.

5

يستطيع أهلنا أن يضحكوا أمام معلمتنا. إنها تأتي من مكان بعيد.

الآنسة دوباك.

اسم ذو رنة بديعة.

– صمتاً، أيها الصغار!

هناك كبار وصغار! إن مهمة المدرسة أن تمزجنا أليس كذلك؟ إنها مصابة بالزكام. ولكنها لا تستخدم أصابعها. لم تعلق بها أية لطخة من الحبر. إن منديلها ككرة من الثلج! إنها تبصق الدم وهي تبتسم... ربما كانت تبصق شقائق النعمان في ألف ليلة وليلة! لا بل وروداً. لو تدعني أشم أظافرها! آه! لو تخلص الانسان من عَرَقه! إنها لا توسخ إبر الحياكة. أتراها تحيك الصوف لأجلي؟ إنها تتجه بنظرها دائماً إلى الآخرين... دوباك بول... اسم يشربه المرء كالهواء... يردده يلقيه بعيداً... بول! ما أتعس أن يُسمَّى الانسان مصطفى! إنها فرنسية. من فرنسة. هل تملك سيارة؟ ولكنها تأكل لحم الخنزير... ليست جائعة على كل حال! تكسر الطباشير دون أن يلومها أحد بأدنى كلمة... عندها مائة دفتر جديد... باستطاعتها أن تخط ما تشاء من الرسائل. أترى أهلها يسكنون قصراً فخماً؟ إنهم بعيدون جداً... لقد جاءت في السيارة الكبيرة مع خطيبها... خـ... ط... ي... ب... يناديها الأهل: مدموازيل دوباك لابول، ولكنه يُفهم ضمناً... خطيبها يلعب الكرة... ويضرب بقوة... خطيب... فرنسي... أنا عربي... أبي متعلم... يحمل عصا... أمي تدعى وردة... يعني «روز» بالفرنسية! إنها لا تخرج أبداً... ولا تقرأ. لها حذاء من الخشب. روز... فرنسية... هناك اختلاف في الكلمات... في اللباس... في المنزل... في أماكن الجلوس في السيارات العامة... عندما سأصبح شاباً سأجلس في المقاعد الأمامية، مع المعلمة... وفي العطلة الصيفية ستصحبني معها. ألست تلميذاً جديراً بالتقدير؟ لقد سجلت ذلك. سأرد لها هذا الجميل... سأصحح لها الوظائف... وستشتري لي بنطالاً، وتعطيني إسماً...

– مصطفى، الصفحة 17.

آي... لقد أعطتني اسم الآخرين!

– إلى التالي.

لقد ذكرتني على كل حال. إنها تفكر فيَّ. لقد قرأت بطريقة سيئة! أني أقواهم... قراءتي معبرة... ولكني مع هذا لا أريد!... لو لم يكن هناك آخرون لحفظت الكتاب عن ظهر قلب. لست بحاجة إلى مدرسة. سأذهب إلى بيتها. إنه مضاء بالكهرباء...

– مصطفى! انك لا تتابع...

إذاً، فليس هناك إلاي؟

وسقط ملاك...

وَقُرِعَ الجرس...

6

وجر الأخضر مصطفى إلى خمّ الدجاج.

– أترى هذه المكنسة؟ سنعلقها على الباب دون أن ندخل... ستفتح الباب من الداخل وتقع المكنسة عليها...

– شحيح!

– لست رجلاً.

– إلى الصف!

وراحت الدجاجات تستمتع بالباحة المقفرة.

وقبع الأخضر ومصطفى في وسط الروث.

واختلطت الروائح بدقات القلوب.

الأخضر: حسناً! لقد دخل الجميع!

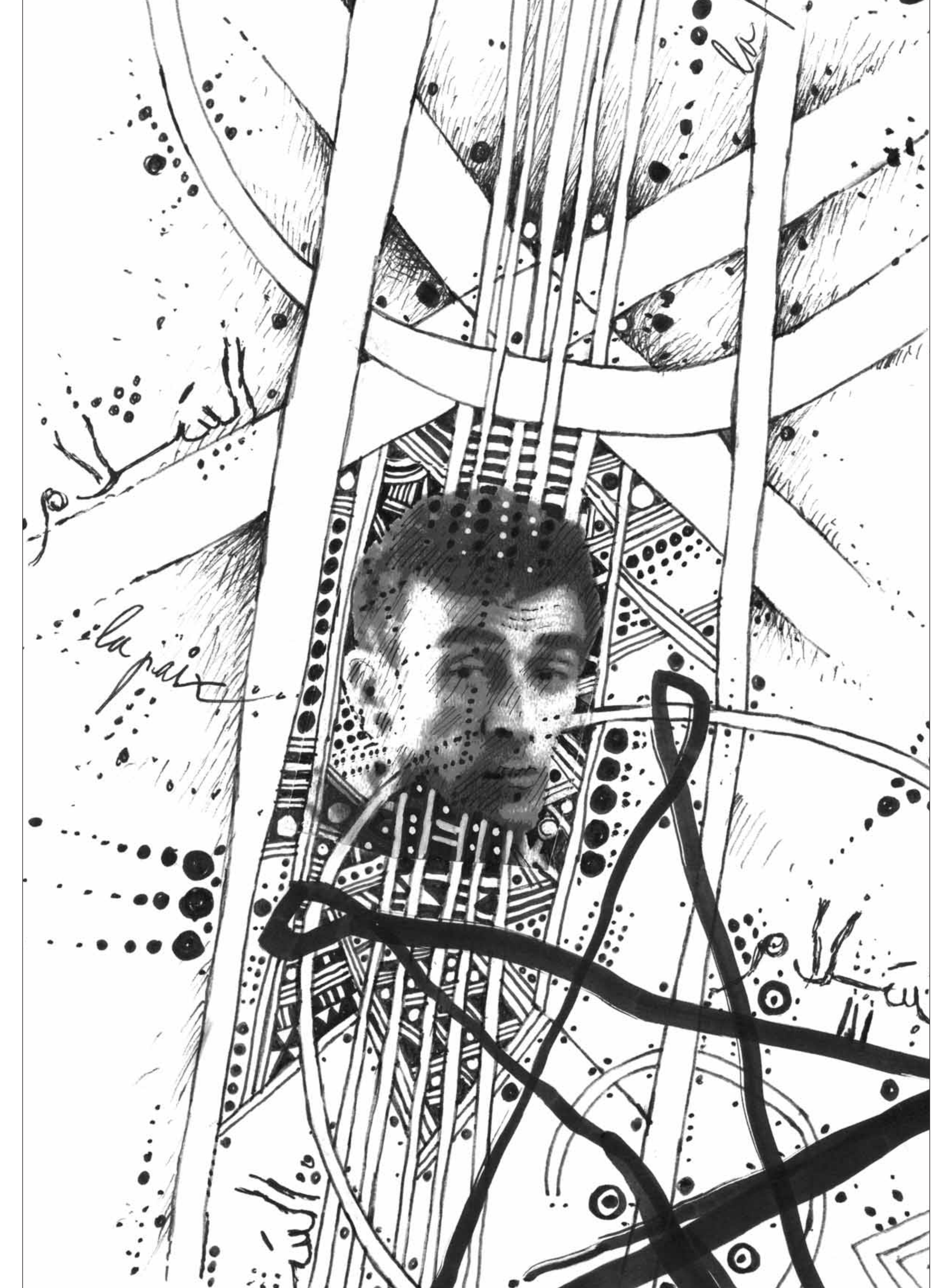
مصطفى: أتعتقد أنهم رأونا؟

الأخضر: «...» أمهم!

وراحا يثرثران ثرثرة الأطفال العقلاء. لم يعودا يخشيان صوت المسطرة. إن المدرسة تسير سيرها الطبيعي. إن لحظيرة الدجاج جواً أليفاً أشبه بجو الرجال في مقهى مغربي.

– أنباشر؟

ويركز مصطفى المكنسة، ويختار الأخضر قطعة من الآجر مدببة الرأس، ويسدد ببطء: توك! في وسط الباب تماماً! وتغرق المدرسة في صمت ثقيل. وتنزل الآنسة



دوباك من على المنبر لتفتح الباب، وهي تطمع أن ترسل عطرها في أنف المدير، ولكن أنف المعلمة الجميل يرتطم بضربة المكنة التي أعدها (الأخضر ومصطفى)! أتراها ستقوم بتحقيق؟ تصرخ كما كان متوقعاً. المكنسة ليست ثقيلة إلى هذا الحد. انه الفن في أن لا يرتكب المرء إلا أنصاف أخطاء. وألقت بيدها على الرتاج هل ستقرر التحقيق ولو حفظاً للمظاهر؟ أم تراها تعود. بكل بساطة إلى كرسيها؟ ويضحك الرفاق... إنها الطريقة لفضح المتآمرين...

ومرت السنون...

وكان عندنا حصة رسم ذات يوم... وراحت البنات المطيعات يمصصن أقلامهن الملونة؛ إنهن لا يبحثن إلا عن الإرضاء. ما أغباهن!

ويصنع الرفاق أوراقاً نقدية كأوراق البنك للفرصة. ولا يسمح الأخضر بتراكم رأس المال.

– المال أو الحياة!

ويستسلم ألبير للخداع.

ويمد فرحات الماكر شباكه.

هل سينقض الأخضر اتفاقه، ويطلب تذاكره من مصطفى؟

وتلاحقهم مونيك الغليظة، ملكة الفتيات، بعينيها الخضراوين... ويقول الأخضر:

– وأنت، الا تعطي شيئاً؟

ولا يحير مصطفى جواباً.

وينهال الأخضر بالضرب.

ويبصق مصطفى... ويرتسم حقده في بقعة صغيرة يقذف بها إلى الأرض. ويطرح كل منهما الآخر أرضاً، فإذا هما جسد ورأس مسترخيان.

ويحصي الرفاق الضربات.

إنه عذاب المتشاجرين عندما يخطئ الحكام أنفسهم!

عضات... لنغش الحكام.

وتصرخ البنات: مدموازيل... انهما يتشاجران! آه! لو نستطيع إنضاج أثدائهن بركلات الأقدام! ولكن للأسف! المتشاجرون هم الذين يقبعون دائماً عند أقدام البنات.

لقد تعبا حتى ما يستطيعان الانفصال عن بعضهما.

وكانت قيلولة... ووحشية هانئة...

– أي عصابة من الأشقياء!

وتأتي عصا الآنسة دوباك الحديدية؛ ويقول الأخضر:

«اضربي يا جميلتي».

ويمد لها يديه...

7

أمام السور، وقف الرعيان، الرفاق القدماء يتشاورون فيما بينهم. كان مسكن الآنسة دوباك يجثم عند قدم جبل تفات. العيون الزرقاء... كانت أميرة أحلام الولد المتوحش الذي لا يتجاوز العاشرة. لم يكن يستطيع الدخول إلى بناء المدرسة الفخم، فكان يتسلق الغابة، ومن هناك يتذوق على البعد مفاتن المعلمة، ثم يخرج، وهو يرتعد، من إحدى الحفر، ويهبط للقاء جيشه.

وينظر الرعيان، فيرون التلاميذ يخرجون... هوذا الباب الكبير مفتوحاً على مصراعيه. ولكن البنات يقمن بالحراسة، فعليهم إذاً أن يقفزوا من فوق الحاجز.

كان زعماء هذا الغزو صبية حرموا من المدرسة لأسباب خفية تبعث على الألم؛ ومع ذلك لم تكن بول دوباك تحمل أية ضغينة لهؤلاء المتوحشين الصغار. إنها تعرف أسماءهم جميعاً، ولكنها لم تكن تطيق رؤية الثياب الممزقة، والأسمال البالية... إنها على يقين من أن المدرسة لن تبقى خالية بعد خروج التلاميذ: إن سكان المستنقعات والحفر سرعان ما ينتقلون إلى باحتها الخالية، ويتواثبون في ذلك القفص، قفص الأولاد المدللين، مع العنادل ذات الأكتاف النقية، التي كانت أم الأخضر تدلكها كل ربيع بزيت الزيتون... وحينئذ تتبادل الأم مع عصفورها الذي حطَّ على الأرض أغصان الأرز، والقبل على المنقار.

ويلتفت الصغير إلى ما حوله فلا يرى لعبة تسليه، فيتعلم مع أولاد التفات؛ وتُعْوزه القطر الكهربائية التي ما تنفك تدور في حلقاتها المتصلة فيلجأ إلى التسلية مع مجموعة من الحشرات اللعينة.

وتجتذب نظرات مونيك أذرع الأشقياء الملطخة بالوحل، فتكاد تفقد وعيها تحت وابل من الحجارة، لأن الحرب يمكن أن تندلع من جديد بين لحظة وأخرى.

8

وتتلاقى أربعة تجاعيد على جبينه مع الشقين المتوازيين اللذين أحدثهما الفَصْدُ الأخير. إن أبي ينام الآن مغتبطاً، وبالإمكان توجيه اي سؤال إليَّ حول الموضوع...

إن الحلاق هو الذي يفصد والدي. إنه يحني جبينه الذي شرطه الموسى ببرودة. ذلك معنى أن يكون دم الانسان زائداً عن الحد! في هذه المرة فُصد أبي في نقرته؛ وفي المرة التالية سيُفصَدُ في جبينه، بمعدلَ فصد واحد في الشهر. تلك هي النتيجة المرتقبة عندما يكونً الانسان ضخم الجثة! أنه يعاقر الخمرة بإدمان، ولذلك يأتي الأطفال مهزولين. أما أنا فقد ولدت سميناً. كان السيّاح يأخذونني في أحضانهم وهم يرددون: «ما أجمل هذا الطفل! لا يبدو عليه أنه طفل عربي!» ولكني، لم ألبث أن أصبحت مثل أمي نحيلاً، هزيلاً، كالمسمار. إن ذلك يفيدني في الشجار، ليس هناك من يماثلني في هزالي الا الأخضر. نحن على الأقل نملك عظاماً وأعصاباً، ونستطيع الجري، ولنا قبضات صلبة كالحجارة...

ما زال ابي نائماً. لقد أجهده الفَصْدُ. إني أحس الرغبة في تقبيله بهدوء حين ينام، دون أن تراني الفتيات... إنه لمن سوء الحظ أن تكون للمرء شقيقتان، وأب واحد. إنه ينام... وهو لا يريد أن أخرج في أثناء قيلولته. تلميذ مجدّ مثلي! أبي ينام، وأنا لا أشعر بالنعاس. هناك أولاد تجعلهم الشمس متوحشين؛ أما أنا والأخضر فإنها تثير فينا الرغبة في الركض كالبقر حين يلسعه البعوض. إن الأخضر ينتظرهني عند النهر. هو على الأقل ليس له أب. إن الذي يصدر الأوامر عندهم هو جده. كان الأخضر راعياً قبل أن يدخل المدرسة. لقد ألفَ الخروج في الشمس؛ أضف إلى ذلك أنه ليس له أب. لا بل له أب يسمونه سي طاهر. ولكنه ليس حقيقياً. إن أبا الأخضر ميت. لم يره الأخضر قط. لقد ولد وحيداً مع أمه زهرة، تلك المرأة اللطيفة التي تزوجت هذا القذر سي طاهر؛ أبو الأخضر ميت؛ أما أبي فيغط في نومه؛ في صفنا ولد من باريس؛ «أبي يغط في نومه». هو الذي يَعُولُنا. لقد جلب لنا اليوم دجاجتين من السوق. ستحز أمي عنقهما فوق نفس الوعاء الذي يستخدمه سي خليفة ليفصد أبي مرة كل شهر. ستحز أمي عنق الدجاجة فوق الوعاء؛ وسيتلو أبي آية من القرآن وهو يمسك بالسكين أمام عين الدجاجة المذعورة. ما أقسى حياة بعض المخلوقات! رقصة دجاجة ذبيحة... مشهد عائلة؛ الانسانية تعود من بعيد!

أبي يتقلب على الجنب الأيسر! إنه لا يزال نائماً! إن قدم الأب تقص أشياء كثيرة عن الماضي؛ إن تشوه ظفر يروي قصة حملة عسكرية... لو لم يكن أبي عربياً لأصبح ماريشالاً... نعم أنا أتكلم بصيغة الشرط... تلميذ ممتاز... هذا ما يقولونه عني... إني أتفوق على كل الفرنسيين في صفي، وأجيب على أسئلة المفتش، لقد أهدتني المعلمة صورة الماريشال بيتان، فبعتها لمونيك في مقابل مبراة. لقد عينت اليوم لرفع الألوان... وأخذ رولان أمتعته لأنه يهودي. إن أبي يعتقد أنه مضطر للنوم على جنبه الأيسر. من الصعب أن يسمح بذلك. أتراه يلاحظ أني أقبله حين ينام. إنه ينام دائماً على الجانب الأيسر، من طرف جيب السترة الصغير حيث يضع النقود الصغيرة؟ إنه لا يهتم كثيراً بالمال. لقد اشترك في الحرب وربما كان يؤثر أن ينام بلباسه الكامل بسبب من ذلك. لم يربح أبي شيئاً من الحرب، كان يظن أنه سيعود غنياً، ولكنه عاد للمحاماة من جديد. لدينا مع ذلك بعض التوفير لعيد الأضحى. لقد اعتادت أمي أن تضع تلك الدراهم، حصيلة المرافعات، في علبة البسكويت الوحيدة التي اجتازت عتبة دارنا، ثم تثبت العلبة على أعلى رف في الخزانة، عندنا كراسي لحسن الحظ! لم أر عن كثب خزانة ذات مرآة. يبدو أننا كنا نملك واحدة عندما كنا نسكن غلمة منذ عشر سنوات؛ لم أكن قد ولدت بعد؛ وقد اختفت بعد ولادتي، كسرها والدي بضربة من عصاه بعد أن تردد طويلاً، لأن النُّفَساء رفضت القيام بالعمل إذا لم تتلق ثوباً

من المخمل لتحتل باليوم السابع لولادتي، فتحطمت مرآة الخزانة، وتصدع عظم والدتي، عظم الشظية (إني الأول في مادة علم الأحياء)، وقد فازت أمي بثوب المخمل الأحمر. وجاء القاضي إلى دارنا يوبخ والدي الذي جاء بالشامبانيا إلى المنزل، ودعا جميع أعضاء المحكمة؛ كل ذلك من أجل ضربة عصا! لقد غفرت أمي كل شيء دون أن تثير مشاكل، وأعدت في المساء نفسه كسكساً هائلاً، وهي تنتصب بثبات على شظيتها المصابة: لقد أطرى القضاة والقرية جميعها الوليمة.

أبي ما يزال نائماً... انها طبيعته... يحطم كل شيء... ثم ينام. إنه رجل طيب. لماذا لا يتنفس بأسرع من ذلك؟ إذا لم يتنفس المرء مات... إن أبا الأخضر... هيا تنفس! أبي ينام. إنه يشخر. إنه يغط في نومه. ليس ميتاً. إنه أب نادر المثال. لم يرفع عليّ عصاه قط. مرة واحدة فقط؛ كان ذلك حين أخفيت علبة «الباستوس» في جوربي لأعطيها للأخضر. أنا لا أدخن جيداً. أما الأخضر فإنه يبتلع الدخان. لقد فتح أبي الباب في اللحظة التي كنت أرفع فيها جوربي فوق العلبة. ضربة عصا واحدة. لم تكد تلمسني، ولكني مع ذلك انفجرت بالبكاء. كنت أضخم مأساتي كعجلة ثُقِبَتْ... لم يكن هناك ما يدعو للبكاء. ولكن رقة ابي لا تقلَ عن عنفه. لقد أعطاني عشرة فرنكات وقبلة؛ وهنأني من أجل الإنشاء الفرنسي. كنت منفعلاً لدرجة أني تخيلت أمي تعوي عواء الانتصار. إنها تدعى وردة، روز؛ هناك أغنية عنها؛ أغنية غريبة تصبح فيها صبية مستهترة، وليست هي كذلك؛ حياتها، أن تحلم بالخروج مع أبي كلما سمعت عصاه ترن بعيداً على الطريق؛ وحتى عندما تبكي فإن لها عينين ماكرتين. إنها لا تكف عن العمل. أمي تفترش الأرض مع البنتين. لا أحب أن أرى بنات يشخرن، ولا سيما اذا كنَّ شقيقات. كان النبي على حق. يجب أن لا يختلط النساء بالرجال، وعلى العكس. إني أحس نفسي مملوءاً بالندم، والحب، والجرأة، أمام الجسد الخشن المتمدد، جسد الأستاذ محمد غريب: إنه أبي؛ وأنا وحدي أعرف أسراره... «الأستاذ محمد غريب يدعوكم إلى مكتبه لبحث أمور المصاريف والأجور»، ذلك هو أسلوب أبي، إن مكتب المحاماة الذي يخصه ليس سوى دهليز ذي أرض محفرة، ارتمى فيه مقعد أسود كالنعش، وكرسي جميل يعود تاريخه إلى أيام زواجه في غلمة، ومنضدة، ورف ثبتهما نجار على عجل... تلك كانت طريقة أبي في تقاضي أجوره، إن شئت الدقة؛ تثبيت رف مقابل أتعابه، انه محامي الفقراء والصبية الفاسدين. إن فقر أبي لم يكن إلا نتيجة لاشتراكه في الحرب. كان في تونس حتى الهدنة. لقد عبَّ كل الخمر المخصص لفرقته. رجل جميل، ذلك هو الأستاذ غريب. له عينان مبرقشتان، «عينا حجل» كما تقول أمي، رجل قصير ضخم البنية، بدأت قامتي تصل إلى ذقنه. إنه ينام. يا له من رجل طيب! مجدّ، مَرِح، شرس، محب للشجار. انه ينام مع عصاه، بلباسه الكامل. لو لم يكن يحتذي حذاءً عربياً لاحتفظ بحذائه في أثناء النوم... إن الأحذية العربية لا تكلف مشقة؛ يكفي أن يحرك الانسان رجله ليخلعها... حذاء أبي، وعصاه، كلاهما يحدثان صوتاً ما فتئت أمي تعلمني كيف أتعرف اليه ليلاً... إن أبي يطيل السهر، ويقول إن ذلك من شأنه وحده... اننا ننتظره دائماً بصبر نافد؛ وفي أثناء ذلك استطعت أن أعلم الأبجدية الفرنسية لأمي، على المنضدة الصغيرة، المحاطة بالوسائد، أمام شجرة التين التي أوشكت أن تموت بين روائح الماء الآسن، والمطبخ الموحل أبداً. (ليس عندنا نبع للماء، إن أمي تقول بغسل الصحون والملابس في أحواض كبيرة)... وعندما أهددها بالنوم تدس لي نثرة من النشوق في منخريَّ، أو تذهب لتحضر المغرفة الكبيرة لتقرأ لي طالعي بها: إذا تحرك ذنب المغرفة إلى اليمين، فسأنجح في الشهادة الابتدائية. ولكني لن أقنع بهذا؛ فقد تقدمت إلى المنحة المجانية من الدرجة الأولى. كنت قد أبللتُ من نوبة ملاريا، تبعتها ذات الرئة، فغدوت نحيلاً شاحباً، وجاءت الآنسة دوباك لرؤيتي. وبينما كان والدي يستوقفها على العتبة كانت أمي تنقلني من فراشها، وتجعلني أتسلق بسرعة سرير والدي. لقد قبلتني المعلمة. وكانت رائحة التبغ تفوح مني؛ ولكن القبلة العظيمة طردت الحمى. ورافقتني الآنسة دوباك

حتى سطيف؛ وأبعدت أمي سوء الطالع عنا بأن سكبت سطلاً من الماء وراء أقدامنا، فتبللت جوارب الأستاذة. كانت رائحة العطر تفوح من أبي... ومضيت وأنا ألعن العائلة... ونجحت! لقد قرأت بوضوح اسم مصطفى غريب في صحيفة قسنطينة... كان إسم الأخضر مذكوراً قبل اسمي بحسب التسلسل الأبجدي.

9

تعود أولى ذكريات مصطفى إلى باحة ذات بلاطات منفصلة تنمو فيما بينها كل أنواع النبات. أما الحجر الثلاث المتلاصقة فيشغلها الوكيل، وأخوته الثلاثة، وزوجتا اثنين منهم بالإضافة إلى الأولاد. تؤلف هذه الغرف الجناح الأيسر من منزل واسع ذي طابق واحد؛ في وسط غلمة؛ ويتمثل فيه دائماً متعطلو القبيلة من أرامل، وجدّات، وعَجَزة، وعاطلين عن العمل؛ ويقوم بالقيادة العليا محمد غريب، فيزوّج أشقاءه قبل أن يتخذ له زوجة. لقد أتيح له أن يكون أكثر رجال القبيلة علماً وثقافة. فبعد أن أمضى سبع سنين في مدرسة قسنطينة أصبح كاتباً مترجماً في محكمة غلمة؛ ثم أمضى خدمته العسكرية وفي عام 1919 حصل على شهادة الوكيل؛ وبدأ عمله بداية حسنة، واشترى قطعة أرض لم يلبث أن باعها ليتزوج. ثم وجد نفسه تحت وطأة الديون غداة العرس؛ فقد أرسلت القبيلة بأجمعها ممثليها لحضور الاحتفال، حسب التقاليد؛ فالأزواج كلهم أبناء عمومة. ولم يستطع الوكيل الصمود في وجه الدائنين، فانتهز فرصة أول تشكيلات قضائية، وسجّل في سطيف، حيث الأعمال أندر وأسوأ مما في غلمة.

وباع الوكيل مجوهرات زوجته، واستأجر غرفتين في ضواحي المحطة، وكتباً على قيد خطوات من منزله؛ لم تنعم العائلة بمسكن أحسن منه في حياتها كلها؛ لم يكن للوكيل إلا جيران أوروبيون، قليلو الفضول؛ إنهم لا يعرفون أن وردة تقتات بالخبز اليابس، وهي ترضع مصطفى؛ وإن الوكيل يجعل من الخمرة غذاءه بالدين. وخلال عام، كان بضعة زبائن، فقراء، ولكنهم منتظمون، يؤمنون حياة الأسرة.

كان مصطفى حتى ذلك الحين الولد الوحيد؛ كانوا يُلْبِسونه ثياباً على الطريقة الفرنسية؛ يدثرونه بالأصواف، ويزقونه بالحلوى. وفي إحدى الأمسيات، أبدى الوكيل كثيراً من الاهتمام والتعلق بابنه لدرجة أنه رجا الطفل المدلل أن يبول في علبة للسكر: إن الأستاذ غريب رجل نبيل، إذا كان النبل هو السذاجة؛ إنه يطمع بلجوئه إلى هذه المظاهر أن يبعد عن ابنه علائم البؤس المحيطة به... ولكن لم يكن أمام مصطفى إلا أن يفتح عينيه قليلاً ليكشف الحقيقة: لم تكن أمه تملك إلا ثوباً واحداً من الكتان، لا يفارق جسمها إلا تصنع منه خرَقاً لمسح البلاط... البلاط الجميل!... ولم يكن الأستاذ غريب نفسه يملك أكثر من برنس أحمر، وسترة من الجوخ، وسروال عريض، وقميصين... أما قمصانه المحيكة من الصوف فليس فيها إلا المثقوب؛ كان طربوشه قذر الأطراف، مدعوكاً، تهتز شرّابته على جانبيه. كان مصطفى، بعد عامين من السكنى في سطيف، يعضها دائماً بحنق وغيظ، دون أن يستطيع اقتلاعها... ولم يخلُ الأستاذ غريب من مظهر للوجاهة؛ فقد كان يملك ثوباً للمحاماة، عُلِّقَتْ عليه الأوسمة، (لمساهمته في خدمة المدارس)... وفي إحدى ليالي الصيف، تُهرَعُ وردة لايقاظ مصطفى، وكان قد بلغ السادسة، فيسوقهما الوكيل، دون أن يفسر شيئاً في سيارة أجرة تستقر بهما في في س... في غرفة رطبة، واسعة؛ ويأتي النجار ليثبت الباب، ويُعلّي الحائط لتستطيع وردة أن تقوم بعملها دون أن تُرى من الخارج؛ وتقسم الغرفة قسمين بحاجز من القرميد، ويعود النجار ليضع باباً ثانياً؛ ويترك الركن الذي توجد فيه المدفأة كسقيفة، ومطبخ، وغرفة للطعام، وتنقل إليه وردة حقائبها، وأدواتها، وأدوات مصطفى... أما الجانب الذي توجد فيه النافذة فيصبح غرفة للنوم، مخصصة للوكيل، فيشتري سريراً مستعملاً، وخزانة كبيرة تستعمل خزانة ومكتباً معاً؛ أما الدهليز الذي يفضي بواسطة الباحة إلى القرية، فقد حول إلى مكتب للعمل. وما إن انتهت الترتيب الأولى، حتى ذهب مصطفى لقضاء ثلاثة أشهر برفقة أمه، عند أقربائهم في غلمة؛ وفي أول كانون الثاني 1937 بدد الأستاذ غريب ألف فرنك ثمن شامبانيا، وكان هذا المبلغ ثلث ما ادَّخر؛ ثم ذهب ليعود بزوجته التي وضعت بنتاً... ويقبع مصطفى في القطار، وهو يكاد ينفجر غيظاً، ويفكر بالقاء أخته الصغيرة فريدة من باب القطار؛ كانت الأم سعيدة بعودتها إلى منزلها، وكان الوكيل قد طلا المنزل بالكلس، وأدخل التمديدات الكهربائية، في أثناء غيابها.

10

أجلست الآنسة صاحبة العصمة مصطفى بقسوة. لقد كفت عن الابتسام، ومكثت دون حراك، وهي ترسم على لوح أسود. وخرج مصطفى بالرغم عنه، مدفوعاً بين صفين من المقاعد الكبيرة كتلك التي تملأ قاعة المحكمة؛ وفي الطريق اقتربت منه بنت ترتدي ثياباً مهلهلة، ومست صداره.

– اسمع، يابن الوكيل!

كانت ترتدي ثوباً من الحرير المثنى، تلفه حول ردفيها، أو تعضه من الأسفل لتتمكن من رفع سطلي الماء؛ إنها تدعى دهبية، حمالة الماء.

ويقول الأستاذ غريب عنها:

– إنها تعمل لأبيها العجوز.

وتضيف وردة:

– إنها صغيرة، هادئة، نشيطة.

إن حمالة الماء ذات عينين كبيرتين، شديدتي السواد، وأجفان مزمومة قليلاً، وحاجبين مقوسين؛ ذات بشرة سمرا، صافية، لماعة، كالرمانة؛ تفرك لثتيها بقشرة الجوز لتكسبها احمراراً: عمرها تسع سنوات... وتدس دهيبة يدها في صدرها، وتخرج رزمة سيئة التغليف، ثم تقول:

– لا تبقَ في الطريق.

فيجري مصطفى نحو الباحة بصورة عفوية. لم يعد البقية يأكلون؛ كانوا يتتابعون الواحد تلو الآخر.

وأمام المدرسة، عند الحداد، حاولت دهبية أن تساعد فلاحاً على ربط بغلته فطردها، وما كان منها إلا أن التقصت بسور الباحة التي تعج بالأولاد، ونادت من جديد:

– يابن الوكيل!

ولم يجرؤ مصطفى على الذهاب إليها، ولا على فتح الرزمة الحقيرة... إنه على يقين ان ما فيها لن يكون إلا كسرة خبز يابس. ويركض لإعادتها إلى دهبية، فتتردد ثم تلتهمها؛ فيشحب مصطفى، إذ يسمع طقطقة صوت الشوكولاته.

وسيطر على مجموعة البنات هدوء شامل... كن يلعبن «بأم الرِّجْل»، ويستخدمن لذلك علب تلميع الأحذية.

وقبع مصطفى في زاوية الباحة، وهو ما يزال يتأمل الصدارات النظيفة، والياقات، والضفائر... إنهن يتمخطن بطريقة رقيقة... ما أرقهن! ها هنَّ يعدن من النبع... فتصدم بنت حمراء مصطفى؛ ويمس جبينه خد نضر، وتلهب مشاعره الأنفاس المثيرة الممتزجة برائحة الحلَوى. ولكن صبيةً ثلاثة يبرزون فجأة في الباحة بخفة! ولا يدري مصطفى أي الثلاثة هو الذي أزاحه من ركنه، بقفزة واحدة؛ وما إن ابتعدوا حتى عاد إلى مكانه، هادئاً، وعلامتان مؤلمتان ترتسمان على أنفه.

– إلى الصف.

في الساعة الرابعة أقبل الأستاذ غريب ينتظر ابنه لدى الخروج من المدرسة. ولا يرى مصطفى إلا السروال والطربوش، فيحمر خجلاً...

ويتجمهر التلامذة أمام الوكيل.

إن آباءهم يرتدون حتماً قبعات، وبناطيل طويلة؛ ويحس مصطفى دموعه تنهمر...

ويبقى التلاميذ متحلقين حول الأب: لا يدري أحد أكان ذلك بدافع الفضول، أم الازدراء...

يجب أن يكون هناك لباس موحد لكل الآباء... ذلك ما كانت تتوسل به النظرات المخضلة بالدمع التي راح مصطفى يجيلها فيما حوله.

ويغتم الأستاذ غريب...

– من الذي خدشك؟

– انه هو!

– لا، أيها السيد؛ إنه هو!

ويش التلامذة، بعضهم ببعض، كما لو كانوا يمزحون؛ ولا يبدو عليهم أنهم يحملون محامي العرب محمل الجد. ويمسك الأستاذ غريب بأكبرهم سناً:

– ما اسمك؟

– ألبير جيوفاني.

ولا يبدو على الغلام أنه قد خاف؛ ويمسك الوكيل به من يده، ويجر وريثه باليد الأخرى؛ وتتراقص العصا على الحصى؛ كان ألبير ذا عينين زرقاوين؛ أما وجهه فمغطى بحبوب صغيرة متقيحة؛ وكان يرتدي بنطالاً قصيراً من المخمل الأصفر قصيراً جداً. انه يجر حذاء ذا طرف لماع، محدب، ينبئ عن طبيعة كالحة، مضحكة. إن مصطفى غالباً ما يرى معنى في الأحذية التي يلبسها الناس؛ وهذا الحذاء يثير في نفسه الرعب؛ لم يكن على يقين أن ألبير هذا هو الذي ضربه. وكان من المستحيل أن يبقى صامتاً، فلا يذكر شيئاً للوكيل الذي كان يضرب الأرض بعصاه، وهو عابس متجهم، فتنط الحصى أمامه، وقد اتخذ شارباه شكلاً قاسياً... إن للصدار الأسود الذي يرتديه ألبير اطاراً أحمر اللون (بينما يبدو صدار مصطفى مهملاً بلا كَيّ) أما ياقة القميص الأبيض، قميص ألبير، فتطل من فوق «كنزة» بنية اللون، حيكت بفن، ويمشي ألبير بسرعة تقارب سرعة الوكيل، ولا ينظر إلى مصطفى.

كان حارس السجن يقرأ صحيفته في حديقة داره.

– بحق العذراء! أوه غريب! ما الذي جاء بك؟

لتذهب في داهية!

ويغوص ألبير في المنزل.

ويبتسم الوكيل.

لقد تشاجر الأولاد.

ويضرب حارس السجن بيديه على ركبتيه؛ وتتطار من غليونه سحابة من الرماد.

– أنتظر، سأذهب، وأحضر السوط!

ويعارض الأستاذ غريب:

– لا، سيتصالحون فوراً.

وتبرز امرأة عريضة، طويلة، ذات عينين زرقاوين، يختبئ وراءها ألبير.

– لا تخلع طربوشك، أرجوك! أهذا ابنك؟

وتقبل السيدة جيوفاني مصطفى.

وتذهب لاحضار زجاجة العَرَق.

وتأمر الأولاد:

– اذهبوا، والعبوا في الحديقة.

كانت مونيك في زيارة لشقيقة ألبير؛ كانت تلعب بالطين وهي جالسة القرفصاء، ويظهر منها في الظل المرتعد شقٌ أحمر اللون، لا تُتَذَوَّقُ رائحته. ولا رؤيته إلا في العذاب، عذاب الخيال المضني... شقٌ من اللحم كُشِفَ ببراءة لعين المتوحش، المبكر النضَج، وأصابَهَ في الصميم...

ويجر ألبير بغضب العَجَلة التي تربَّعَ فيها الجنرال مصطفى:

– حسناً، إلى الهجوم.

ويدفع ألبير قبعته إلى أعلى جمجمته؛ ويجري مسرعاً ليملأ المزادة من الحوض؛ فيرفع الجنرال سدارته، ويدير منظاره نحو المسلخ.

ويعود ألبير مع الرقيب لويجي، الذي يقف في وضع استعداد.

– المهمة قد أُنجزت، سيدي القائد.

– ألا يزال العدوُّ مختبئاً؟

ويرد لويجي:

– لقد فتشت كل مكان.

– أين الجندي ماكس؟

– مع مونيك.

ويحمر الجنرال مصطفى.

– أيها الحاجب! إئتني بالسيارة!

ويربط ألبير نفسه إلى العجلة، ويجر قائده إلى الزاوية غير المزروعة في الحديقة؛ ويتوقف أمام حفرة، عمقها متر، واتساعها متران، على وجه التقريب، مملوءة بالماء.

– لقد أمرتكم بوضع الحديد المصفح. كيف يمكننا



النزول في الخندق، إذا ما هاجمت عصابة الأخضر؟
– لن يهاجموا.
ويأخذ لويجي السطل، ويُفْرغ الماء، ويضيف دون أن ينقطع عن العمل:
– الأخضر الآن في مدرستنا. لم يعد مع الرعاة.
– ماذا لو طلبنا إليه الانضمام إلى جيشنا؟
ويهمس ألبير:
– لن يوافق أبي.
– لماذا؟
– لا أشقياء، ولا عرب، في الحديقة. هذا ما يردده أبي، وأكمل ألبير: لن يوافق!
وتوقف لويجي عن افراغ الماء:
– أليس قائدنا عربياً؟
وأجاب ألبير:
– نعم، انه عربي، ولكن أباه محام.
ولم يستطع مصطفى الامتناع عن الاحمرار.
وصرخ لويجي:
– لدي فكرة، لن يدخل الأخضر الحديقة، بل يطلب إليه الحضور إلى ورشات «التفات».
– لا بأس، أيها الرقيب! لقد رقيتك إلى رتبة ملازم. ستأخذ حربتي. إذهب، وأحضر لي الأخضر!
وتدخّل ألبير:
– انتبهوا، أبي لا يسمح بإخراج أدواته العسكرية خارج المنزل.
ويفقد الأخضر حربة حارس السجن عند ورشات «التفّات»؛ ويرفض أن ينادي مصطفى بلقب «قائدي». فتنظم مباراة للمتنافسين... وها هوذا الجيش كله يشتبك بالأيدي في فوضى لا مثيل لها. وينجلي الموقف عن انتصار مصطفى. وتترك الأسلحة جانباً لتحل الرياضة بدلاً منها؛ فيتخلى الجنرال عن رتبته من تلقاء نفسه، ويصبح الأخضر ومصطفى منظمين للعب، ثم حكمين، وزعيمين للعصابة التي اتسعت أيضاً لمجموعة صغيرة من الرعيان.
ويتصارع الأخضر ومصطفى مرتين، فيأخذ الأخضر ثأره. إن قوة الزعيمين متعادلة. لم تستطع الآنسة دوباك فصلهما عن بعضهما. انهما لا يغشان أبداً في الصف. مصطفى الأول دائماً، ولكن الأخضر يتلافى تقصيره بهدوء بعد أن قفز صفين.
أما بالنسبة للبنات، فالأخضر على استعداد لتحطيم كل من يخطر له أن يغازل مونيك. ولا يتردد مصطفى في القيام بالحراسة عندما يقبل الأخضر دهبية في مكتب الوكيل.

11

– أمامكم ثلاثة أرباع الساعة لانهاء الموضوع. وينفخ السيد تامبل على أصابعه. ويخلع نظارتيه ويعود إلى الجلوس من جديد.
إن قاعة علم الأحياء أكثر القاعات ترتيباً. فهي تشتمل على ثلاثة مُدرَّجات من الخشب ثبتت عليها المقاعد؛ ولكل صف ترتيباته الخاصة فيها؛ فلتلاميذ الصف الثالث الأدبي مثلاً مكان معين يتخذونه منذ الدرس الأول حتى نهاية العام.
السيد تامبل عميد المدرسين.
وهو عضو في لجنة الانضباط.
له صوت قوي إلى حد مخيف.
يتمسك حرفياً بدروسه.
لا يعيد الدرس مطلقاً.
ولا يتراجع بعقوبة.
لا يتباسك مع بقية الأساتذة.
ولا يصادف في أزقة سطيف.
ويغير مصطفى مكانه، وصفه! ليس هذا كل شيء. إن صباح هذا اليوم من أيلول 1945 يتميز بعدد غير معتاد من المتغيبين. ويجد مصطفى نفسه وحيداً في الصف الأيسر. إنه يوم الامتحان.
ها هوذا السيد تامبل لا ينبس بحرف.
ربما كان ينتظر دفتر التفقد.
ولم يلبث أن غادر منضدته لحظة، ثم دخل المخبر.
وتلفتت إحدى البنات، ثم تلتفت أخرى نحو مصطفى.
فيحدق بهن، وشفتاه ترتجفان.
ورحن يتهامسن بحَذر.
ويدمدم شارل المخنث لحناً خفيفاً.
أما س... و ت... فيبدآن محاضرة ساخرة، ملأى بالتلميحات...
ويدق السيد تامبل الأرض بقدمه صائحاً:
– بحق السماء!
ويبقى فمه مفتوحاً.
وتتراقص خصلة بيضاء على تجاعيده.
ويضع بخشونة الهيكل العظمي كازيمير.
ويحني الجميع رؤوسهم، ومصطفى منهم:
– آنسة، ديو، إذهبي عند المراقب العام!
وتنسحب ابنة صاحب أكبر مخزن للحلوى في سطيف، وهي تهز شعرها الأسود الكثيف؛ ويتنشق مصطفى حتى نسمة الهواء التي حركتها، وهي تصفق الباب.
ويدخل المراقب متأبطاً سجله الأخضر.
ويعطيه شارلي أسماء المتغيبين.
وهو يشدد على الأحرف الحلقية.
كلهم من المسلمين.
ويترك المراقب ورقة على المنبر.
ويتظاهر السيد تامبل بلا مبالاة.
ويتظاهر مصطفى بشرح الهيكل العظمي.
ويحس نظرات المعلم تتوقف عنده...
«... سيدي الأستاذ، لن أسلم الموضوع... اليوم عيد المولد[8] إن أعيادنا ليست مسجلة في تقاويمكم. لقد أحسن الرفاق صنعاً إذ تغيبوا. كنت على يقين بأني الأول في الامتحان... إنني رفيق مزيف!... إني أحب علم الحياة؛ ولكن الأخضر لا ينظر إلى الأمور من هذه الزاوية. لقد أتيت وحدي؛ وسأقدم ورقة بيضاء... لقد جئت لأعرف الموضوع فقط... لأحس رهبة الامتحان. إني أحب علم الحياة، وسأقدم ورقة بيضاء».
– مصطفى غريب.
ويتراقص الهيكل العظمي.
... إلى مكتب السيد المدير.
وترتفع الرؤوس، يحفزها الخوف والانتصار.

12

ويبدو المدير مثني الجذع على كنبته:
ليس له صدر؛ يعلو كرشه في اتجاه الجمجمة المنكوبة ويمكث مصطفى واقفاً.
– لن أقول لك الشيء الكثير. أنت متفوق حقاً. إن أكثر درجاتك جيدة تقريباً...
ويحس مصطفى السجادة الثمينة من خلال كعب حذائه المثقوب.
– ... ولكني لا أستطيع أن أثني كثيراً على مَن تعاشرهم...
ويجيل مصطفى بصره بخشوع في الأجفان المتورمة، مصطنعاً الهدوء والانتباه، ولكنه لا يصطدم بنظرة منها؛ كان المدير يتحرك، ويتحدث، مصوباً نظره إلى البعيد، مزوراً برأسه جانباً؛ لا يبدو عليه أنه يتحدث إلى مصطفى.
– ... أصغ جيداً إلى ما سأقرأه عليك. سأتلو نصاً كيفما اتفق: «بين ألوف الأطفال الذين يتعفنون في الأزقة، نحن عدة طلاب تحيط بنا الشبهات. أترانا سنكون خدماً؟ أم سنكتفي «بالمهن الحرة» لنصبح بدورنا ذوي امتيازات؟... أيمكننا أن نطمع بشيء آخر؟ الجميع يعرفون أن المسلم المجنَّدَ في الطيران يكنِّس أعقاب سجاير الطيارين؟ وإذا ما أصبح ضابطاً، فإنه لن يحصل على درجة كولونيل، حتى ولو كان خريج كلية الهندسة، إلا ليسوق مواطنيه إلى مكتب التجنيد».
– هل تتعرف على هذا النص؟
لم يُتْرَكْ لمصطفى وقت للاجابة.
– اني أتابع: «أتعرف ماذا قرأت في تاسيت؟» توجد هذه الأسطر في ترجمة أكريكولا: «كان أهل مقاطعة بريتانيا يعيشون كالمتوحشين، على أهبة دائمة للحرب. وقد صمم أكريكولا على أن يعودهم الراحة والهدوء عن طريق اللذائذ فاتبع هذه الطريقة... لقد ثقّفَ أبناء زعمائهم... ولقَّنَهم بأنه يفضل روح البريتانيين البدائية على مواهب الغول المكتسبة.
وما هي إلا فترة، حتى راحت هذه الشعوب التي كانت تكره لغة الرومان تتباهى في التكلم بها برشاقة. ودَرَجَ الناس على ارتداء لباسنا، وأصبح الرداء الروماني الفضفاض هو الزي السائد... وبصورة عفوية، راحت هذه الشعوب تقع تحت اغراء مفاسدنا، وبدأت تقلد أروقتنا، وحماماتنا، وولائمنا الفاخرة... وراح هؤلاء الرجال الذين تنقصهم التجربة يسمون حضارة ما كان يقودهم نحو العبودية... هذا ما نقرأه في تاسيت... وهكذا نقع نحن أحفاد النوميديين الآن، نقع تحت استعمار الغول!»
ولم يعد مصطفى يصغي...
لقد فصل من المدرسة أسبوعاً كاملاً...

(1) لاموريسيير هو القائد الفرنسي الذي لحتل قسنطينة.

(2) هيبون: مدينة نوميدية قديمة بالقرب من عنابة. فيها أطلال رومانية كثيرة. أما سيرتا فهو الإسم القديم لقسنطينة. وكانت عاصمة الدولة النوميدية. وغوغورتيه: أمير نوميدية قاتل الرومان طويلاًحتى وقع في أيديهم فقتلوه.

(3) قوس النصر: من معالم باريس.

(4) الجزائر: شبه الجزيرة، كانت تعني في الاصل شبه الجزيرة العربية، ثم الجزائر. ويلاحظ الأصل العربي في التسمية الفرنسية Algérie.

(5) سالامبو: إبنة أمير قرطاجة.

(6) الوكيل: المحامي في القضاء الإسلامي (حاشية المؤلف).

(7) حكيم: عاقل طبيب... إلخ (حاشية المؤلف).

(8) ميلاد النبي محمد (حاشية المؤلف).